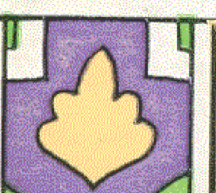
السيد محمد حسين الطباطبائي

رسالة الولاية

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان




شبكة الفكر
alfeker.net

رسالة

الولاية

رسالة الولاية
المؤلف : العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي
من منشورات : دار التعارف للمطبوعات .
سنة النشر : ١٤٠٧ هـ.

رسالة

الولاية

تأليف: العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



المكتب : شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية ابو علي طعام
ص - ب ٨٦٠١ - ١١
تلفون ٨٣٦٦٩٦ - ٨٣٧٨٦٨
تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ - LE

تمهيد :

بسمه تعالى

هذه رسالة في الولاية بقلم وارث الفلسفة الاسلامية المعاصر العلامة الفقيد السيد محمد حسين الطباطبائي قدّس سرّه ، صاحب التفسير الكبير المعروف « الميزان في تفسير القرآن » .

وتدور فصول الرسالة حول الكمال الانساني الذي يبلغه اولياء الله ، والدرجة الرفيعة التي يتسنّمها هؤلاء في سلم الرقي الفكري والنفسي والعملي . ويخلص المؤلف في رسالته الى أن هدف الرسالات السماوية يتمثل في دفع الانسان نحو كماله المطلوب وإيصاله الى درجة

الاولياء . . الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . الى درجة الانسان المرتبط بالحقيقة المطلقة حيث تزول الجبال ولا يزول. وكل تفاصيل التشريع انما تستهدف خلق المناخ الفكري والنفسي والاجتماعي اللازم لمثل هذه المسيرة التكاملية .

وبعد ، فالرسالة مكتوبة على طريقة سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ في معالجة القضايا الفكرية ، وبلغتهم . وهي طريقة ولغة لا يستأنس بها المحدثون ، ولكن يركن اليها المتعودون على الغوص في بحار التراث الاسلامي . ويجدون فيها عمقاً واصالة لا تتوفّر عادة في النصوص المسطحة الحديثة .

نأمل من نشر هذه الرسالة أن يستفيد منها المعينون ، والله من وراء القصد .

مؤسسة أهل البيت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على أوليائه المقرّبين ، سيّما سيِّدنا محمّد وآله الطاهرين .

رسالة في الولاية ، وانها هي الكمال الاخير الحقيقي للانسان ، وانّها الغرض الاخير من تشريع الشريعة الحقّة الإلهية على ما يستفاد من صريح البرهان ، ويدلُّ عليه ظواهر البيانات الدينية . والكلام موضوع في فصول . والله سبحانه المستعان .

الفصل الاول

في أنَّ لظاهـر هذا الدين بـاطناً، ولصورته الحقة حقايق

نقـول : إنّ الموجـودات تنقسم بـاعتبـار إلى قسمـين ؛ فـانّ كل معنى عقلنـاه ، إمّا أن يكـون له مـطابق في الخارج موجود في نفسه ، سواء كان هناك عاقل، أو لم يكن ، كالجواهر الخارجية من الجماد والنبات والحيوان وأمثالها .

وإمـا أن يكـون مـطابقـه مـوجـوداً في الخـارج بحسب ما نعقله ، غير موجود لولا التعقّل ، كـالملك . فإنّـا لا نجـد في مـورد الملكيـة ، وراء جـوهـر المملوك ـ وهـو الارض مثلاً ـ ، وجوهر المالك ـ وهو الانسان مثلاً ـ ، شيئاً آخـر في الخـارج يسمّى بـالملك ؛ بـل هـو معنى قـائم بـالتعقل ؛ فلولاه لا ملك ولا مـالك ولا مملوك ، بـل هنـاك إنسان وأرض فحسب .

ويسمّى القسم الاول بـالحقيـقـة ، والقسم الـثـاني بالإعتبار .

وقد برهّنا في كتاب الاعتبارات على أنّ كلَّ اعتبار فهو متقوّم بحقيقة تحتها .

ثم إنّا إذا تتبّعنا وتأمّلنا ، وجدنا جميع المعاني المربوطة بالانسان ، والارتباطات التي بين أنفس هذه المعاني ، كالملك وسائر الاختصاصات والرئاسة والمعاشرات ومتعلقاتها وغير ذلك ، أموراً إعتبارية ، ومعاني وهمية ، ألزم الانسانَ باعتبارها احتياجُه الأوّلي إلى الاجتماع والتمدّن لجلب الخير والمنافع ، ودفع الشر والمضار . فكما انّ للنبات نظاماً طبيعياً في دائرة وجوده من سلسلة عوارض منظّمة طبيعية طارئة عليه ، يستحفظ بها جوهره بالتغذّي والنموّ وتوليد المثل ؛ فكذلك الانسان مثلاً له نظام طبيعي من عوارض يستحفظ بها جوهره في أركانه ، إلّا انّ هذا النظام محفوظ بمعاني وهمية ، وأُمور إعتبارية ، بينها نظام إعتباري ، وتحتها النظام الطبيعي . يعيش الانسان بحسب الظاهر بالنظام الاعتباري ، وبحسب الباطن والحقيقة بالنظام الطبيعي ، فافهم ذلك !

وبالجملة ، فهذا النظام الاعتباري موجود في ظرف الاجتماع والتمدّن ؛ فحيث لا إجتماع ، و لا إعتبار ؛ وهذا بعكس النقيض .

ثم إنّ ما تعرّض لبيانه وشرحه الدين ، من المعارف المتعلقة بالمبدء ، ومن الأحكام والمعارف المتعلّقة بما بعد هذه النشأة الدنيوية ، كلّ ذلك بيان بلسان الاعتبار ؛ يشهد بذلك التأمّل الصادق ، وحيث لا ظرف إجتماع ولا تعاون في غير ظرف الاحكام ، وقد أدّيت بلسان الاعتبار . فهناك حقائق أخر مبيّنة بهذا اللسان ، وكذلك مرحلة الاحكام .

وبعبارة أُخرى ما قبل هذه النشأة الاجتماعية من العوالم السابقة على وجود الانسان الاجتماعي ، وما بعد نشأة الاجتماع مما يستقبله الانسان من العوالم بعد الموت ، حيث لا إجتماع مدنياً فيها ، لا وجود لهذه المعاني الاعتبارية فيها البتة .

فالمعارف المشروحة في الدين ، المتعلّقة بها ، يحكى عن حقايق أخر بلسان الاعتبار ، وكذلك مرحلة الاحكام . فان الدين الإلهي يجعل الامور الموجودة فيما بعد هذه النشأة ، مترتبة على مرحلة الاحكام والاعمال ، ومنوطة ومربوطة حقيقة بها ؛ ووجود الربط بين شيئين حقيقة ، يوجب إتحادهما في نوع الوجود وسنخه ، كما برهنّا عليه في محلّه .

وحيث انّ تلك الموجودات أُمور حقيقية خارجية ، فالنسب إنّما هي بينها وبين الحقايق التي تحت هذه الامور الاعتبارية ، لا أنفسها ، فقد ثبت أنّ لظاهر هذا الدين باطناً ، وهو المطلوب .

تتمة : فيما يدلُّ على ذلك ، من الكتاب والسُّنّة :

نقول : إنَّ من المسلّم عند عامّة من يرى الرجوع إلى الكتاب والسُّنّة معاً ، انّ هناك معارف وأسراراً وعلوماً خفيّة مخفية عنّا ، لا يعلمها إلاّ الله ـ عز اسمه ـ أو من شاء وارتضى . والكتاب الإلهي مشحون بذلك ، وكفى فيه قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ وما هذه الحيوةُ الدُّنيا إلاّ لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدارَ الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾[1] .

أي إنّ الحياة الحقيقية الصادقة ، هي الحياة الآخرة ، بدليل عدّه سبحانه الحياة الدنيا لعباً ولهواً ، وقصره الحياة في الحياة الآخرة ، بقصر الافراد ، أو على طريق قصر القلب ، كما يشهد به قوله سبحانه :

---

(١) العنكبوت / ٦٤ .

﴿ يعلمـون ظاهـراً من الحياة الـدُّنيا وهـم عن الآخـرة هم غافلون ﴾[2].

وهـذه الآية تشعـر بأنّ للحيـاة الـدنيـا شيئـاً آخـر غـير ظاهره ، وانّـه هي الآخرة ، لمكـان الغفلة . كما يستفـاد من كـلامك تقـول لصاحبـك : إنـك أخـذت بـظاهـر كـلامي وغفلت عن شيء آخـر . دلَّ قـولـك هـذا عـلى أنّ المغفـول عنه باطن الكلام ، وهو الشيىء الآخر .

ويدلُّ على هذا قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ فَـأَعْرِضْ عَمَّن تـولَّى عن ذكـرنـا ولم يُـرِدْ إلاَّ الحيـاة الـدُّنيا ذلـك مبلغُهُم من العلم إنَّ ربَّك هـو أعلمُ بمَنْ ضلَّ عن سبيله وهو أعلمُ بمن اهتدى ﴾[3].

حيث يتحصـل منه أنّ ذكـر الله سبحـانـه هـو السبيـل إليه ، والتولِّي عنه ضلال عن سبيله ، وأنّ ذكره ـ سبحانه ـ لا يحصـل إلاّ بالإعـراض عن الحياة الـدنيـا ، وأنّ المعـرض عن ذكـره إنّما يبلغ علمـه الحياة الـدنيا لا يتجـاوزه إلى غيره الحاصل بالذكر .

فهناك شيء غير الحيـاة الدنيـا ، وفي طولـه ؛ ربما بلغـه

---

(٢) الروم/٧.

(٣) النجم / ٢٩ ـ ٣٠ .

العلم وربما وقف دون الحياة الدنيا هذا .

والزائد على هذا المقدار يطلب مما سيجيء في أواخر الفصول ، إن شاء الله العزيز .

ومن الأخبار في هذا الباب ، ما في البحار ، عن المحاسن ، عن رسول الله ـ صلَّى الله عليه وآله ـ ، انّه قال : « إنّا معاشر الأنبياء ، نكلِّم الناس على قدر عقولهم » .

أقول : وهذا التعبير إنّما يحسن اذا كان هناك من الامور ما لا يبلغه فهم السامعين من الناس ، وهو ظاهر . وقوله ـ صلَّى الله عليه وآله ـ : « نكلّم .. الخ »، ولم يقل : نقول ، أو نبيّن ، أو نذكر ، ونحو ذلك ، يدلُّ على أنّ المعارف التي بيّنها الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، إنّما وقع بيانها على قدر عقول أممهم ، ميلاً من الصعب الى السهل ، لا انّه اقتصر بهذا المقدار من المعارف الكثيرة إرفاقاً بالعقول ، اقتصاراً من المجموع بالبعض .

وبعبارة أُخرى : التعبير ، ناظر إلى الكيف دون الكمّ . فيدلُّ على أنّ هذه المعارف حقيقتها التي هي عليها ، وراء هذه العقول التي تسير في المعارف بالبرهان والجدل والخطابة ، وقد بيّنها الأنبياء عليهم السلام بجميع

طرق العقول من البرهان والجدل والوعظ كل البيان ، وقطعوا في شرحها كلَّ طريق ممكن .

ومن هنا يعلم أنّ لها مرتبة فوق مرتبة البيان اللفظي ؛ لو نزلت إلى مرتبة البيان دفعتها العقول العادية ، إمّا لكونها خلاف الضرورة عندهم ، أو لكونها منافية للبيان الذي بيّنت لهم به ، وقبلته عقولهم .

ومن هنا يظهر انّ نحو إدراك هذه المعارف بحقائقها غير نحو إدراك العقول ، وهو الإدراك الفكري . فافهم ذلك !

ومنها الخبر المستفيض المشهور : « إنّ حديثنا صعب مستصعب ، لا يحتمله إلّا ملك مقرّب ، أو نبيّ مرسل ، أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه بالإيمان » .

ومنها وهو أدلُّ على المقصود من سابقه ، ما في البصائر مسنداً عن أبي الصامت ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام ، يقول : « إنّ من حديثنا ما لا يحتمله ملك مقرب ، ولا نبيّ مرسل ، ولا عبد مؤمن » . قلت : فمن يحتمله ؟ قال : « نحن نحتمله » .

أقول : والأخبار في هذا المساق أيضاً مستفيضة ، وفي بعضها ، قلت : فمن يحتمله ؟ جعلت فداك ! قال :

« من شئنا » .

وفي البصائر أيضاً عن المفضل ، قال : قال أبو جعفر عليه السلام :

« إنّ حديثنا صعب مستصعب ، ذكوان ، أجرَد ، لا يحتمله ملك مقرّب ، ولا نبيّ مرسل ، ولا عبد امتحن الله قلبه للايمان . أمّا الصعب فهو الذي لم يركب بعد ؛ وأمّا المستصعب فهو الذي يهرب منه إذا رؤي ؛ وأمّا الذكوان فهو ذكاء المؤمنين ؛ وأمّا الأجرد فهو الذي لا يتعلّق به شيء من بين يديه ولا من خلفه ، وهو قول الله : ﴿ الله نزَّل أحسن الحديث ﴾ . فأحسن الحديث حديثنا ، لا يحتمل أحد من الخلائق أمره بكماله حتى يحدّه ، لانّه من حدَّ شيئاً فهو أكبر منه . والحمد لله على التوفيق ، والانكار هو الكفر » .

قوله : لا يحتمل ، إلى قوله : حتى يحدّه ؛ مع ما في صدر الحديث من نفي الاحتمال ، يدلُّ على أنّ حديثهم عليهم السلام أمر ذو مراتب ، يمكن أن يحتمل بعض مراتبه بواسطة التحديد ، ويشهد له تعبيره عن الحديث في رواية أبي الصامت بقوله عليه السلام : من حديثنا . . . الخ . فيكون حينئذ مورد هذه الرواية مع الرواية الاولى

« لا يحتمله إلاّ . . . الخ »، مورداً واحداً لكونه مشككاً ذا مراتب ؛ ويكون أيضاً كالتعميم للنبويّ السابق « إنّا معاشر الانبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم »، هذا !

وتحديد كلّ واحد من الخلايق حديثهم عليهم السلام ، لكون ظرفه الذي به يحتمل ما يحتمل ، وهو ذاته ، محدوداً ؛ فيصير به ما يحتمله محدوداً ، وهو السبب في عدم إمكان الاحتمال بكماله : فهو أمر غير محدود ، فهو خارج عن حدود الامكان ، فهو مقامهم من الله سبحانه ، حيث لا يحدُّه حدّ ، وهو الولاية المطلقة . وسيجيء إن شاء الله العزيز في بعض الفصول الاخيرة كلام فيه أبسط من هذا .

ومنها أخبار أُخر يؤيّد ما مرّ ، كما عن البصائر مسنداً ، عن مُرازِم ، قال أبو عبد الله عليه السلام : « إنّ أمرنا هو الحق ، وحقُّ الحق ، وهو الظاهر ، وباطن الظاهر ، وباطن الباطن ، وهو السر ، وسرُّ السر ، وسرُّ المستسر ، وسرّ مقنع بالسر ».

وما في بعض الاخبار أنّ للقرآن ظهراً وبطناً ، ولبطنه بطناً ، إلى سبعة أبطُن .

وما في خبر آخر انّ ظاهره حكم ، وباطنه علم .

وما في بعض أخبار الجبر والتفويض ، كما عن التوحيد مسنداً عن مرُازم ، عن الصادق عليه السلام في حديث ، قال : فقلت له : فأيُّ شيء هو؟ أصلحك الله ! قال : فقلّب يده مرّتين ، أو ثلاثاً ، ثم قال عليه السلام : « لو أجبتك فيه لكفرت » .

وفي الأبيات المنسوبة إلى السجاد عليه السلام ، قوله :

وربَّ جوهر علم لو أبوح به
لقيل لي : أنت ممن يعبد الوثنّا

ومن الروايات ، أخبار الظهور التي تفضي بأنّ القائم المهدي عليه السلام بعد ظهوره ، يبثُّ أسرار الشريعة ، فيصدِّقه القرآن .

وما في البصائر ، مسنداً عن مسعدة بن صدقة ، عن جعفر عليه السلام ، عن أبيه عليه السلام ، قال : ذكرت التقية يوماً عند علي بن الحسين عليه السلام ، فقال عليه السلام : « واللهِ لو علم أبو ذرّ ما في قلب سلمان ، لقتله وقد آخَى بينهما رسولُ الله ـ صلَّى الله عليه وآله ـ الحديث » .

وفي الخبر ، أنّ أبا جعفر عليه السلام حدّث جابراً

بأحاديث ، وقال : « لو أذعتها ، فعليك لعنة الله والملائكةِ والناسِ أجمعين » .

وما في البصائر أيضاً ، عن المفضّل ، عن جابر ، حديث ملخّصه أنّه شكى ضيق نفسه عن تحمّلها ، وإخفائها بعد أبي جعفر عليه السلام إلى أبي عبد الله عليه السلام ، فأمره أن يحفر حفيرة ، ويدلي رأسه فيها ، ثم يحدّث بما تحمله ، ثم يطمّها فانّ الأرض تستر عليه .

وما في البحار ، عن الاختصاص والبصائر ، عن جابر ، عن أبي جعفر عليه السلام ، في حديث « يا جابر ! ما سترنا عنكم ، أكثر مما أظهرنا لكم » .

اقول : ومتفرقات الاخبار في هذه المعاني اكثر من ان تحصى ، وقد عدُّوا جمعاً من أصحاب النبيِّ ـ صلَّى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت من أصحاب الاسرار ، كسلمان الفارسي ، وأويس القرني ، وكميل بن زياد النَخعي ، وميثم التمَّار الكوفي ، ورُشيد الهجري ، وجابر الجُعفي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .



الفصل الثاني

في أنَّه حيث لم يكن النظام نظام الإعتبار، فكيف يجب أن يكون الأمر في نفسه ؟

وبعبارة اخرى : هذه الاسرار الباطنة الكامنة في الشريعة ، من أيٍّ سنخ هي ؟

نقول : البراهين العقلية مطبقة على أنّ العلية والمعلولية بنحو الكمال والنقص والترشح كترشح الظلل من ذي الظل . وأيضاً على أنّ النواقص من لوازم مرتبة المعلولية ، وعلى أنّ هذه النشأة مسبوقة الوجود بعوالم أخر ، بنحو العلّية والمعلولية ، حتى ينتهي إلى الحق الأوّل سبحانه هذا !

ويستنتج من جملتها أنّ جميع الكمالات الموجودة في هذه النشأة ، موجودة فيما فوقها بنحو أعلى وأشرف ؛ وانّ النواقص التي فيها مختصة بها غير موجودة فيما فوقها ، ولا سارية إليها البتة؛ وهذا إجمال، بيان تفصيله وشرحه، على ما هو حقه، متعسر أو متعذر .

مثال ذلك : إنّ كمالات هذه النشأة ، كالطعام

اللذيـذ والشـراب الهنيء والصـورة الجميلة وأمثـالها ، وهي من أعـظم ما يستلذّ بهـا في هذه النشـأة ، أوّل مـا فيهـا إنّها غـير دائمي الوجـود ، وانّ بروزهـا في أيـام قـلائـل ، وهي محفوفة بـآلاف من الآفات الـطبيعية والعـاهات الخـارجية او المشـوهات الممكنـة التي لو طـرء عليهـا واحـد منهـا ، بـطل جمالها .

فـالاستلذاذ بها ، وكـذلـك نفس الاستلذاذ والمستلذّ ، فالجميع واقف بين ألوف وأُلوف من المنافيـات ؛ لو مـال إلى واحد منها ، بطل وفسد الامر .

ثم إنّـا بعـد التـأمّـل الـوافي ، نجـد أنّ جميـع هـذه النـواقص والمنافيـات راجعـة إلى المـادّة ، إمّـا إبتـداء ، أو بالواسطة ، كالنواقص الخلقية والـوهمية . فحيث لا مـادة ، لا شيء من النواقص الراجعة إليها .

فهي مقصورة على هذه النشأة . فالنشأة التي فوق هذه النشأة معرّاة من هـذه النواقص ، مبـرّاة من هذه العيـوب ، وإنّما هي صور بلا مواد ، ولذائذ مثالية بلا مناف ألبتة .

ومـرادنا من المـادّة هي الجوهـر الغير المحسـوس الـذي يقبـل الانفعال ، دون الجسميـة التي هي صـورة غـير المـادة فافهم ذلك !

ثم إذا تأمّلنا ثانياً ، وجدنا الحدود المثالية في أنفسها نواقص ، وانّ للمحدود في نفسه مرتبة خالية عن الحدّ . إذ هو خارج عن ذاته على ما برهن عليه في محله .

فهناك نشأة اخرى ، يوجد فيها نفس هذه اللذائذ والكمالات بنحو بحت ، أي خالية عن الحدود . فإنّ لذائذ الأكل والشرب والنكاح والسمع والبصر مثلاً ، في مرحلة المثال أيضاً ، لكلٍّ واحد منها محلّ لا يتعدّاه . فلست تجد لذة النكاح مثلاً من السمع والأكل ، ولا كمال الأكل من الشرب ، وكذلك ما في هذا الفرد من الأكل في الفرد الآخر منه ، وعلى هذا القياس .

وليس ذلك كلّه إلاّ من جهة الحدود الوجودية بحسب ظرف الوجود . فالنشأة التي فوق نشأة المثال ، الساقطة فيها الحدود ، يوجد فيها جميع هذه الكمالات واللذائذ بنحو الوحدة والجمع والكلية والارسال ، هذا !

وهذا كلُّها معانٍ متفرّعة على أُصول مبرهن عليها في محلّها مسلّمة عند أهلها .

هذا كلُّه بالنسبة إلى ما قبل هذه النشأة الماديّة ؛ وأمّا بالنسبة إلى ما بعدها ، فالكلام فيه نظير الكلام ، غير انّ نشأة المثال في العود قبل نشأة العقل بالنسبة إلينا بخلاف

البدو ، فإنّها بعدها فيه .

نعم ، بين البدء والعود فرق آخر ، وهو أنّ مادّة الصور المثالية هي النفس ، وهي التي توجد لها تلك الصور بإذن ربّها ، وحيث انّها متوقفة حيناً ما في نشأة المادّة ومتعلقّة بها ، وهي عالم الوهم والاعتبار ، فهي فيها تأخذ ملكات وأحوالاً ، ربما لائمت نشأتها السابقة ، وربما لم تلائمها . فإنّ هذه النشأة شاغلة حاجبة عمّا ورائها . فربما استقرَّت الملكات على ما هي عليه من الحجب ، وذلك بالاخلاد إلى الأرض ، والغفلة عن الحقّ . وربما استقرّت على غير هذا الوجه بالانصراف عن زخارف هذه النشأة ، والاعراض عن عرَض هذا الأدنى ، وقصر التعلق بها على ما تقتضيه ضرورة التعلق بالمادّة ، وصرف الوجه إلى ما ورائها والأنس به .

فهذه النفس بعد الانقطاع عن المادّة ، تشرف على الصور الملائمة لذاتها من عالم الانوار المثالية والروحية . وقد كانت ما تستأنس بها من قبل في الأيام الخالية ، فتطّلع على روح وريحان وجنة نعيم ، وتتضاعف صورها الكمالية ولذائذها الروحية بالنسبة إلى مثال النزول والبدو .

وكـذا عـالم التجـرّد التـام بـالضـرورة من جهـة ازديـاد معلوماتها في نشأة المادة ، فتشاهد أنواراً وأسراراً ، ومـلائكة مثالية وأرواحاً صورية برزخيـة ، وجميع أنـواع لذائـذها التي شـاهـدتهـا ، وهي متعلقـة بـالمـادّة في نشـأتهـا من مـطعـوم ومشـروب وملبوس ومنكـوح ومسموع ومبصر وغيـرها عـلى أهنى مـا يكون . كـلّ ذلك عـلى طريق تمثيـل مـا فـوقهـا في ظرفها على نسق ما في مراتب النزول . هذا !

وليس معهـا ألم مـادي ، ولا وهمي ، ولا يمسّهـا نصب ولا لغوب ، وهذا كلّه حين كونها في عالم المثال .

وإذا كانت ملكاتها غير حـاجبة عن الكليـات ، أشرفت أحيـاناً عـلى أنوار عـالم التجرّد ووجـودهـا ، وهي في البهـاء والسنـاء والجمال والكمـال بحيث لا يقـدَّر بقـدر الصـور ، ولا يقـاس بقيـاس المثـال . ويتكـرَّر هـذا الاشـراف حتى تتمكّن النفس منه تمام التمكّن ، وتأخذهـا مقامـاً ، وترتقي درجـة ، فتشـرف حينئـذ عـلى نشـأة الأسماء ؛ وهي عـالم المحض من كـل معنى ، والبحت من كـل بهـاء وسنـاء ، فتشـاهـد علماً بحتـاً ، وقـدرة بحتـة ، وحيـاة بحتـة ، ومن الوجود والثبـوت والبهاء والسنـاء والجمال والجـلال والكمال والسعادة والعزّة والسـرور والحبور ، من كـلّ منها ، البحت

المحض ، حتى تلحق بالأسماء والصفات ، ثم تندمج باندماجها في الذات المتعالية ، ثم تغيب بغيبها ، وتفنى بفناء نفسها ، وتبقى ببقاء الله سبحانه ، وتعالى عن كل نقص ، ﴿ وانّ الى ربِّك المُنتهى ﴾[1]، ﴿ والى الله الرُّجعى ﴾[2]. هذا إذا كانت ملكاتها مقدسة ملائمة لعالم القدس .

وإذا كانت ملائمة لثقل هذه النشأة ، غير ملائمة لعالم القدس ، فتنعكس كلّما تشاهده ألماً عليها وعذاباً من أنواعه ، كلّما أرادت أن تخرج منها من غمّ بواسطة أصل ذاتها ، أُعيدت فيها بواسطة ردائة ملكاتها ، وقيل لها : ذوقي عذاب الحريق . هذا !

وليس الامر على ما تزعمه العامّة ، من أنّ جنة السعداء حديقة فقط ، وانّ نار الاشقياء حفرة نار فقط ؛ بل هي نشآت تامّة وسيعة أوسع من هذه النشأة بما لا يوصف .

وقد ظهر مما قدمنا أن بين البدء والعود فرقاً من وجهين :

---

(١) النجم /٤٢ .

(٢) العلق /٨.

أحدهما : انّ العود أوسع من البدء ، من حيث اتّساع النفس بمعلوماتها في نشأة المادة .

وثانيهما : انّ الطريق متشعب في العود إلى طريقَي السعادة والشقاوة ، واللذّة والألم ، والجنة والنار ، بخلاف البدء .

وهذا لا ينافي سبق شقاوة الأشقياء ، وجفاف القلم الأعلى .

واعلم أنّ هذه المعاني بين ما هو ضروري ، وما أُقيم عليه البرهان في محلّه .

وممّا مرّ من البيان ، يظهر وجه ارتباط الاعمال والمجاهدات الشرعية بما وعده وأوعده الحقّ سبحانه بلسان أنبيائه المرسلين . وسيجيء زيادة توضيح لذلك بعد يسير .

تتمّة : فيما يدلُّ على ما مرّ ، من الكتاب والسُّنة :

نقول : إذا نظرنا نظر التدبّر إلى خصوصيات شريعة الاسلام ، بل جميع الملل الإلٰهية ، وجدنا أنّ المقصود الوحيد فيها ، هو صرف وجه الانسان إلى ما وراء هذه

النشأة الطبيعية . وهذه سبيلها تدعو إلى الله على بصيرة ، فهي في جميع جهاتها تروم إلى هذا المرام ، وتطوف على هذا المطاف ، بايٍّ طريق أمكن .

ثم إنَّ الناس من حيث درجات الانقطاع إلى الله سبحانه ، والاعراض عن هذه النشأة الماديّة ، على ثلث طبقات :

الطبقة الاولى : إنسان تامُّ الاستعداد ، يمكنه الانقطاع قلباً عن هذه النشأة مع تمام الايقان باللازم من المعارف الالهية ، والتخلص إلى الحقِّ سبحانه ، وهذا هو الذي يمكنه شهود ما وراء هذه النشأة المادية، والإشراف على الأنوار الالهية ، كالأنبياء عليهم السلام ، وهذه طبقة المقربين .

الطبقة الثانية : إنسان تامُّ الايقان ، غير تامّ الانقطاع من جهة ورود هيآت نفسانية ، وإذعانات قاصرة ، تؤيسه أن يذعن بإمكان التخلّص إلى ما وراء هذه النشأة المادّية ، وهو فيها .

فهذه طبقة تعبد الله كأنّها تراه ، فهي تعبد عن صدق من غير لعب ، لكن من وراء حجاب إيماناً بالغيب ، وهم المحسنون في عملهم .

وقـد سُئل رسـول الله صـلّى الله عـليـه وآلـه عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنـك تراه ، فـإن لم تكن تراه ، فإنّه يراك » .

والفـرق بين هـذه الطبقـة وسابقتهـا ، فرق مـا بين إنّ وكأنّ .

الطبقة الثالثة : غير أهل الطبقتين الاولين ، من سائـر الناس وعامّتهم .

وهـذه الطائفـة ، باستثنـاء المعانـد والمكابـر الجـاحـد ، طـائفة تمكنهـا الاعتقاد بـالعقائـد الحقّة الـراجعـة إلى المبـدء والمعاد ، والجريان عملاً على طبقها في الجملة لا بالجملة .

وذلـك من جهـة الاخـلاد إلى الارض واتّبـاع الهـوى وحبِّ الدنيا ، فإنّ حبَّ الدنيـا وزخارفهـا يوجب الاشتغـال بها ، وكونها هي المقصود من حركات الانسان وسكناته .

وذلـك يـوجب انصـرف النفس إليهـا ، وقصر الهمـة عليها ، والغفلة عمّا ورائها ، وعمّا تـوجبه الاعتقـادات الحقّة من الاحوال والاعمال ، وذلـك يوجب ركـودها ووقـوفها ، أعني الاعتقادات الحقّة على حالها ، من غير تـأثير لهـا وفعلية للوازمها وجمود الاعمال والمجاهـدات البـدنيـة عـلى ظاهـر نفسهـا واجسادهـا ، من غير سـريان أحـوالها وأحكـامها إلى

القلب وفعلية لوازمها ، وهذا من الوضوح بمكان .

مثال ذلك : إنا لو حضرنا عند ملك من الملوك وجدنا من تغير حالنا وسراية ذلك إلى أعمالنا البدنية من حضور القلب والخشوع والخضوع ما لا نجده في الصلاة البتة ، وقد حضرنا فيها عند ربِّ الملوك .

ولو أشرف على شخصنا ملك من الملوك ، وجدنا ما لا نجده في أنفسنا؛ ونحن نعتقد أنّ الله سبحانه يرى ويسمع ، وأنّه أقرب إلينا من حبل الوريد ، ونعتمد على الاسباب العادية التي تخطىء وتصيب ، اعتماداً لا نجد شيئاً منه في أنفسنا ؛ ونحن نعتقد أنّ الأمر بيد الله سبحانه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

ونركن إلى وعد إنسان ، أو عمل سبب ، ما لا نركن جزءاً من ألف جزء منه إلى مواعيد الله سبحانه ، فيما بعد الموت والحشر والنشر . وأمثال هذه التناقضات لا تحصى في اعتقاداتنا وأعمالنا ، وكلُّ ذلك من جهة الركون إلى الدنيا . فان انكباب النفس على المقاصد الدنيوية ، يوجب قوة حصول صورها في النفس ، على أنّها متسابقة إليها ، تذهل صورة ،، وتتمكن صورة ، وتخرج اخرى آناً بعد آن .

وذلك يوجب ضعف صور هذه الاصول والمعارف الحقّة ، فيضعف حينئذ تأثيرها بإيجاد لوازمها عند النفس ؛ وحبُّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة .

وهذه الطائفة لا يمكنها من الانقطاع إلى الله سبحانه أزيد من الاعتقادات الحقّة الاجمالية ، ونفس اجساد الاعمال البدنية التي توجب توجّهاً مّا وقصداً مّا في الجملة إلى المبدء سبحانه في العبادات .

ثم إنّا إذا تأمّلنا في حال هذه الطبقات الثلاث ، وجدناها تشترك في أُمور ، وتختصُّ بأُمور . فما يمكن أن يوجد من أنحاء التوجه والانقطاع في الطبقة الثالثة ، يمكن أن يوجد في الأوليين من غير عكس . وما يمكن أن يوجد في الثانية ، يوجد في الأولى من غير عكس .

ومن هنا يتبينّ أنّ تربية الطبقات الثلاث ، مشتركة ومختصة ؛ ولهذا نجد الشريعة المقدسة الإسلامية ، تعينّ أحكاماً نظرية وعملية عامة ، فيما لا يمكن إهماله بالنسبة إلى طبقة من الطبقات ، من الواجبات والمحرمات .

ثم تؤسّس بقاي ما يتعلّق بجميع جزئيات الأمور وكليّاتها ، بحسب ما يناسب ذوق أهل الطبقة الثالثة ، من المستحبِّ والمكروه ، والمباح ، ويمكن ذلك في قلوبهم

بالوعد والوعيد ، بالجنة والنار ؛ ويحفظ ذلك بالعـادة بالأمـر بـالمعروف ، والنهي عن المنكـر . فانّ التكـرّر أقوى بـرهـان عند العامّة .

ثم هي تسلك بـالنسبة إلى الـطبقة الثـانية ، بمـا سلكته هي بـالنسبة إلى الثـالثة مـع زيـادات خـاصـة من الاحكـام الخلقية وغيرها .

وعمـدة الفرق بـين الطائفتـين في قوّة العلم وتـأثيـره ، وضعف ذلك ، كما عرفت .

ثم تسلك بـالنسبة إلى الـطبقة الأولى بـأدقّ من مسلكـه في الثـانيـة والثـالثـة . فـرب مبـاح أو مستحبّ أو مكـروه بـالنسبـة إليهـا ، هـو وجب أو محـرّم بـالنسبـة إلى الـطبقـة الأولى . فحسنات الأبرار ، سيئـات المقرّبـين ؛ إلاّ أنّ ذلك كذلك عندهم لا يتعدّاهم إلى غيرهم .

وتخصّهـا أيضاً بـامور واحكـام غير مـوجودة في الثـانيـة والثـالثة ؛ ولا غـير هذه الـطبقـة تكـاد تفهم شيئـاً من تلك المختصات ، ولا يهتدى إلى طريق تعليمها .

وذلـك كلّه لما أنّ ميـز طبقتهم وأساسهـا المحبـة الإلٰهيـة دون محبـة النفس . فالفـرق بينها وبـين الآخريـن ، في نحو العلم والادراك ، دون قوّته وضعفه وتأثيره وعدمه .

ولئن شئت أن تعقل شيئاً من ذلك في الجملة ، فعليك بالتأمّل التامّ في أطوار الاتحاد .

فللمعاشرة أحكام ، وللصداقة أحكام ، وللخلّة أحكام ، ولكلّ من المحبة والعشق والوجد والوله وما يسمّى فناء ، أحكام اخر ؛ وكلّ حكم مختص بمرتبة نفسه ، لا يتعدّاها إلى غيرها أبداً .

والمحصل انّ الشرايع الالهية ، وخاصةالشريعة الإسلامية ، تروم في جميع جزئيات الأمور وكليّاتها ، نحو غرضها المذكور ؛ وهو توجيه وجه الانسان لِلّه ، وصرفه إليه سبحانه .

وذلك بتكوين الملكات والأحوال المناسبة لذلك ، بواسطة الدعوة الى الاعتقادات الحقّة ، والأعمال المولدة للحالات الزاكية النفسانية الموصلة الى الملكات المقدسة .

ويظهر ذلك ، تمام الظهور ، لمن تتبّع تضاعيف الكتاب والسُّنّة . فمن الواضح منها ، أنّ الميزان هو الاطاعة والتمرّد ، والتقرّب والتباعد بالنسبة إلى الحقّ سبحانه على اختلاف أنواع الأحكام .

ثم إنّ من الظاهر من الشريعة أنّ ما وعده الله

سبحانه في كتابه ، وبلسان رسوله ، من المقامات والكرامات وغير ذلك ، على طبق هذه الأحوال والملكات ؛ فلها نسبة معها ؛ أعني انّ للنفس بواسطتها نسبة معها ، وتلك المقامات والمنازل هي التي بيّنها الشريعة المقدسة في معارف المبدء والمعاد .

وقد مرّ في تتمة الفصل الأوّل انّ هذه المعارف ، هي التي لها الحقايق والبواطن التي هي فوق مرتبة البيان ، وهي فوق تحمّل العامّة من الناس ، لا تطيقها أفهامهم .

فقد ظهر انّ هذه الأمور ، كيف هي .

الفصـل الثالـث

لا ريب عند أرباب الملل الإلٰهية أنّ الأنبياء عليهم السلام ، لهم اتّصال بما وراء هذه النشأة ، واطّلاع على الأمور الباطنة ، على اختلاف مراتبهم .

فهل هذا موقوف عليهم ، مقصور بهم هبة إلهية ، أو انّه ممكن في غيرهم ، غير موقوف عليهم ؟

وبعبارة اخرى : هل هذا أمر اختصاصي بهم ، لا يوجد في غيرهم في هذه النشأة إلّا بعد الموت ، أو أمر اكتسابي ؟ والثاني ، هو الصحيح .

نقول : وذلك لأنّ النسبة بين هذه النشأة وما ورائها ، نسبة العليّة والمعلولية ، والكمال والنقص ، وهي التي نسمّيها بنسبة الظاهر والباطن . وحيث انّ الظاهر مشهود بالضرورة ، وشهود الظاهر لا يخلو من شهود الباطن ، لكون وجوده من أطوار وجود الباطن ، ورابطاً بالنسبة

إليه ، فالباطن أيضاً مشهود عند شهود الظاهر بالفعل .
وحيث انّ الظاهر حدّ الباطن وتعيُّنه ، فلو أعرض الانسان عن الحدّ بنسيانه بالتعمل والمجاهدة ، فلا بدَّ من مشاهدته للباطن ، وهو المطلوب .

توضيح ذلك : إنّ تعلّق النفس بالبدن واتِّحادها به ، هو الذي يوجب أن تذعن النفس بانّها هي البدن وعينها ، وانّ ما تشاهده من طريق الحواسّ منفصل الوجود عن نفسها لما ترى من انفصاله عن البدن ؛ والوقوف على هذا الحدّ يوجب نسيانها لمرتبتها العليا من هذه المرتبة ، وهي مرتبة المثال وأعلى منها غيرها .

وبنسيان كلّ مرتبة ، ينسى خصوصياتها وموجودات عالمها ، وهي مع ذلك تشاهد إنّيتها ، وهي التي تعبّر عنها بأنا ، مشاهدة ضرورية لا تنفك عنها .

ثم بالانقطاع عن البدن لا تبقى حاجب عنها ولا مانع ، وعلى هذا فلو رجع الانسان بالعلم النافع والعمل الصالح إلى نفسه وإنِّيته ، فلا بدَّ من مشاهدتها ومشاهدة مراتبها وموجودات عالمها من أسرار الباطن .

فقد بان أنّ من الممكن أن يقف الانسان ، وهو في هذه النشأة ، على الحقايق المستورة الخفيّة التي تستقبله فيما

بعد الموت الطبيعي في الجملة .

تتمة :

ويشهد على ذلك عمدة الآيات والاخبار التي سننقلها ان شاء الله فيما بعد .

إلّا انّ عمدة الآيات والاخبار التي سننقلها ان شاء الله فيما بعد .

إلّا أنّ عمدة إنكار عامّة المنكرين لهذه السعادة ، متوجهة إلى شهود الحقّ سبحانه ، فقد زعموا استحالته ، واستدلّوا على ذلك بأنّ وجود الحقّ سبحانه وجود مجرد مبرى عن الاعراض والجهات والامكنة ، فيمتنع عليه تعلق الرؤية البصرية لاستلزامها جسماً ذا كيفية وجهة ووضع خاصّ ، هذا !

وتمسك محدِّثوهم بالاخبار النافية للرؤية ، وأوَّلوا جميع الآيات والروايات التي تثبتها بحملها على المجاز ونحو ذلك .

وأنت خبير بأنّ دليلهم مخصوص بنفي الرؤية البصرية ، ولا يدَّعيها أحد غير شرذمة من متكلِّمي

العامّة ، وظاهريهم على ما ينسب إليهم . والاخبار النافية ، في مقام الردّ عليهم ؛ كما هو ظاهر لمن راجع مناظراتهم واحتجاجاتهم عليهم السلام .

بل المثبتون للرؤية والشهود إنّما يثبتون شيئاً آخر ، وهو شهود الموجود الامكاني على فقره وعدم استقلال ذاته المحض ، بتمام وجوده الإمكاني ، لا بالبصر الحسي ، أو الذهن الفكري ، وجودَ مبدعها الغني المحض .

وهذا معنى يثبته البراهين القاطعة ، ويشهد عليه ظواهر الكتاب والسُّنّة . بل مقتضى البراهين ، استحالةٍ انفكاك الممكن عن هذا الشهود ؛ وإنّما المطلوب ، العلم بالشهود وهو المعرفة ، لا أصل الشهود الضروري ، وهو العلم الحضوري .

وبالجملة لكون عمدة نفيهم متوجهة إلى ذلك ، خصَّصنا بعض أدلّتها بالذكر ، والباقي محوّل إلى ما سيجيء إن شاء الله .

قال تعالى : ﴿ وُجوه يَومئذ ناضِرة إلى ربِّها ناظِرة ﴾[1] .
وقال : ﴿ وأنّ إلى ربِّك المُنتهَى ﴾[2] .

---

(١) القيامة / ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) النجم / ٤٢ .

وقال : ﴿ وإليه تُقلّبون ﴾[3] .

وقال : ﴿ وإنّا إلى ربِّنا لَمُنقَلِبون ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وإليه المَصير ﴾[5] .

وقال : ﴿ ألا إلى الله تَصيرُ الأمور ﴾[6] .

وقال : ﴿ وإليه تُرجَعون ﴾[7] .

وقال : ﴿ ولقد آتَيْنَا موسىَ الكتابَ فلا تكنْ في مِرْية مِن لِقائه ﴾[8] .

وقال : ﴿ مَن كانَ يرجوا لقاء الله فإنَّ أجلَ الله لآت ﴾[9] .

أقول : وهذان اللفظان ، أعني « اللقاء » و « الرجوع » ، كثير الدور في الكتاب والسُنَّة .

وقال سبحانه : ﴿ سَنُريهم آياتنا في الآفاق وَفي أنفُسهم حتَّى يَتَبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بربِّك أنّه على كلِّ شيء شهيد ألا إنهم في مِرْية مِن لِقاء ربِّهم ألا إنَّه بكلِّ شيء مُحِيط ﴾[10] .

---

(3) العنكبوت / 21 .

(4) الزخرف / 14 .

(5) المائدة / 18 .

(6) الشورى / 52 .

(7) يونس / 56 .

(8) السجدة / 23 .

(9) العنكبوت / 5 .

(10) فصلت / 53 ـ 54 .

وسياق الآية الاولى ، وهو قوله : سنُريهم آياتِنا في الآفاق ، الى حتّى يَتبيّنَ . . . الخ ، يعطي انّ المراد بالشهيد هو المشهود دون الشاهد .

وكذلك قوله : ألا إنّهم في مِرْية من لِقاء ربِّهم . . . الخ ؛ وهذا كالاعتراض ، وجوابه ، قوله سبحانه : ألا انّه بكلِّ شيء مُحيط .

وسياق هذه الآية الاخيرة ، وهو قوله : ألا إنّهم . . . الخ ، ينافي ما يقولون : ان معنى اللقاء هو الموت أو القيامة مجازاً ، لبروز آياته وظهور حقّيته سبحانه يومئذ ، فكأنّه تعالى مرئي مشاهد لا يراب فيه . وذلك لأنّه سبحانه ردَّ عليهم ريبهم في لقائه بإحاطته بكلِّ شيء ، واحاطته في الدنيا ويوم الموت ويوم القيامة سواء . فلا وجه لتعبيره عن الموت أو عن القيامة ، من جهة إحاطته باللقاء .

على انّ الآية حينئذ لا يرتبط بالآية السابقة ، بل معنى الآية ـ والله العالِم ـ كفى في حقّيته وثبوته سبحانه ، انّه مشهود على كلِّ شيء ، لكن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم لارتيابهم في شهوده ولقائه ، ولا يجوز لهم . وكيف يجوز لهم الارتياب والامتراء ، وهو بكل شيء محيط ، فهو

الأوّل والآخر والظاهر والباطن عند كلّ شيء ، وأينما تُولُّوا فثَمَّ وَجهُ الله ، ما مِن نَجْوى ثلثة إلّا هو رابعهم ، ولا خمسة إلّا هو سادسهم ، وهو معكم أينَما كُنتم .

والذي هذا شأنه ، لا يتأتّى الامتراء في شهوده ولقائه ؛ لكن يجوز الشكّ في انّ آياته ، ستظهر ظهوراً لا ارتياب فيه من هذه الجهة ، فافهم !

وهذا الذي ذكرناه لا ينافي ما رواه في التوحيد عن عليّ عليه السلام انّ ما ورد في القرآن من كلمة اللقاء فهم منه البعث ، الحديث . فإنّ كلامنا في المفهوم المستعمل فيه ، كما هو ظاهر ، دون المصداق . فمن المعلوم أنّ البعث من مصاديق اللقاء كما سيأتي جملة من الآيات والروايات في ذلك ، وكما هو ظاهر قوله سبحانه : ﴿ يُنذِرونكم لقاءَ يَومكم هذا ﴾[11] .

وقوله سبحانه : ﴿ أئذا ضَلَلْنا في الأرض أئَنَّا لَفِي خَلْقٍ جديدٍ بَل هم بلقاءِ ربِّهم كافرون ﴾[12] الآية .

ومن الروايات ما في المحاسن ، مسنداً عن زُرارة ،

---

(11) الانعام / ١٣٠ .

(12) السجدة / ١٠ .

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذ ربُّك مِن بني آدمَ من ظُهورهم ذريَّتَهم وأشْهَدَهُم على أنْفُسهم ﴾، قال : « كان ذلك معاينة الله ، فأنساهم المعاينة ، وأثبتهم الإقرار في صدورهم . ولولا ذلك لم يعرف أحد خالَقَه ورازقَه ، وهو قول الله : وَلَئن سئلتَهم مَن خَلَقَهم ليقولنَّ الله ».

ومنها ما في تفسير القمّي ، مسنداً عن ابن مُسْكانَ ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، في قوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذَ ربُّك مِن بني آدم من ظُهورهم ﴾ إلى قوله : بَلَى ، قلت : معاينة كان هذا ؟ قال : « نعم ، فثبتت المعرفة ، ونسوا الموقف ، وسيذكرونه ؛ ولولا ذلك ، لم يدرِ أحد مَن خالقُه ورازقه ، فمنهم مَن أقرَّ بلسانه ولم يؤمن بقلبه . فقال الله : فما كانوا ليُؤمِنوا بما كذَّبوا به من قبل ».

ومنها ما في تفسير العيّاشي ، عن زُرارة ، قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله : ﴿ وإذ أخَذ ربُّك من بني آدمَ ، ﴾ إلى أنفسهم ؛ قال : «أخرج الله من ظَهر آدم ذُرّيَّتَهُ إلى يوم القيامة ؛ فخرجوا كالذَّر ، فعرَّفهم نفسَه ؛ ولولا ذلك ما عرف أحد ربَّه ، وذلك قوله : ﴿ ولئن سئلتَهم مَن خلقَ السموات والأرضَ لَيقولنَّ الله ﴾.

ومنهـا ما في التـوحيد ، مسنـداً عن أبي بصير ، عن أبي عبـد الله عليه السـلام ، قال : قلت لـه : أخبـرني عن الله عـزَّ وجلَّ هـل يراه المؤمنـون يوم القيـامة ؟ قـال : « نعم ، وقد رأوه قبل يوم القيامـة » . فقلت : متى ؟ قال : « حين قـال لهم : **أَلَستُ بـربِّكم ؟ قـالـوا : بـلى** » . ثم سكت ساعة ، ثم قـال : « وإنّ المؤمنين ليـرونه في الـدنيا قبـل يوم القيـامة ، ألست تـراه في وقتـك هـذا »؟ قـال أبـو بصـير : فقلت لـه : جعلت فداك ! فـاحدِّث بهـذا عنـك ؟ فقـال : « لا ، فـإنّك إذا حـدَّثت به فـأنكره منكـر جاهـل بمعنى مـا تقـولـه ، ثم قـدر أنّ ذلـك تشبيـه وكفـر ، وليست الـرؤيـة بـالقلب كالـرؤية بـالعين . تعـالى الله عـما يصفـه المشبّهـون والملحدون » .

ومنهـا مـا في التـوحيـد ، عن هشـام ، في حـديث الـزنديق ، حـين سـأل الصـادق عليـه السـلام عن حـديث نزوله إلى سماء الدنيا ، فأجـاب بأنّـه ليس كنزول جسم عن جسم إلى جسم ، إلى أن قـال : « ولكنّـه ينـزل إلى سـماء الـدنيا بغـير معانـاة ولا حركـة ، فيكون هـو كـما في السـماء السابعة على العرش ، كـذلك في سـماء الدنيـا . إنّما يكشف عن عظمته ، ويُـري اوليائـه نفسَه حيث شـاء ، ويكشف ما شاء من قدرته ، ومنظرد بالقرب والبعد سواء » .

ومنها ما في التوحيد ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، في حديث : « وسأل موسى وجرى على لسانه من حمد الله عزَّ وجلَّ : ربِّ أرني أنظُرْ إلَيك . فكانت مسألته تلك أمراً عظيماً ، وسأل أمراً جسيماً ، فعوقب ، فقال الله تعالى : لَن تَراني في الدنيا حتّى تموت ، فتراني في الآخرة ، الحديث » .

ومنها ما في عدة من أخبار الجنة أنّ الله سبحانه يتجلّى فيها لوليِّه ، ثم يقول له : ولك في كل جمعة زورة .

وفي جمع الجوامع في الحديث: « ستَرَون ربّكم كما تَرون القمر ليلة البدر » .

ومن الروايات ما ورد في خصوص رسول الله والأئمة عليهم السلام ، ففي التوحيد ، مسنداً عن محمّد بن الفضيل ، قال : سألت أبا الحسن عليه السلام : هل رأى رسول الله ربَّه عزَّ وجَّل ؟ فقال : « نعم ، بقلبه رآه . أمَا سمعت الله عزَّ وجَّل يقول : ما كذب الفؤاد ما رأى . لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد » .

ومنها ما في التوحيد ، عن الرضا عليه السلام في حديث : « كان ـ يعني رسول الله ـ صلى الله عليه وآله إذا نظر إلى ربِّه بقلبه ، جعله في نور مثل نور الحجب ، حتّى

يستبين له ما في الحجب ».

ومنها ما في كامل الزيارة لابن قولويه ، مسنداً عن ابن أبي يعفور ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وآله في منزل فاطمة ، والحسين في حجره ، إذ بكى وخرَّ ساجداً ، ثم قال : يا فاطمة ! يا بنت محمّد صلى الله عليه وآله ، إنّ العَليَّ الاعلى ترائى لي في بيتك هذا ، في ساعتي هذه ، في أحسن صورة وأهيأ هيئة ، وقال لي : يا محمّد صلَّى الله عليه وآله، أتحبُّ الحسين عليه السلام ؟ فقلت : نعم ، قرّة عيني ، وريحانتي ، وثمرة فؤادي ، وجلدة ما بين عينيّ ، وقال لي : يا محمّد ! ووضع يده على رأس الحسين - بورك من مولود عليه بركاتي وصلواتي ورحمتي ورضواني ، الحديث ».

ومنها قول أمير المؤمنين - عليه السلام - مستفيضاً : « لم أعبدْ رباً لم أره » .

ومنها قوله عليه السلام : « ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله ».

وبالجملة ، فالاخبار في هذا المعنى كثيرة جدّاً مستفيضة أو متواترة .

وليس المراد من الرؤية فيها ، هو قوّة العلم الحاصل بالدليل ؛ فإنه علم فكري .

والاخبار الكثيرة الاخرى ، تنفي كونه معرفة بالحقيقة ، فضلاً عن كونه رؤية وشهوداً ؛ فاذن المطلوب ثابت ، والحمد لله .

الفصل الرابع

في أنَّ الطريق إلى هذا الكمال ، بعد إمكانه ، ما هو ؟

نقول : حيث انّ نسبة الحقايق إلى ما في هذه النشأة المادّية والنفس البدنية ، نسبة الباطن إلى الظاهر ؛ وكلّ خصوصية وجودية متعلّقة بالظاهر ، متعلقة بباطنه بالحقيقة ، وبنفس الظاهر بعَرضه وتبعه ، فالإدراك الضروري الذي للنفس بالنسبة إلى نفسها متعلقة بباطنها اوّلاً وبالحقيقة ، وبنفسها بعَرضه وتبعه .

فالحقيقة التي في باطن النفس أقدم إدراكاً عند النفس من نفسها وأبده ، وما هي في باطن باطنها أقدم منها وأبده ، حتّى ينتهي إلى الحقيقة التي إليها تنتهي كل حقيقة ؛ فهي أقدم المعلومات ، وأبده البديهيّات .

وحيث انّ الوجود صرف عندها ، لا يتصوّر له ثان ولا غير ، فلا يتصوّر بالنسبة إلى إدراكها دفع دافع ، ولا منع مانع . وهذا برهان تامّ غير مدفوع ألبتة .

ثم نقول : إنّ كل حقيقة موجودة ، فهي مقتضية لتمام نفسها في ذاتها وعوارضها ، وهذه مقدمة ضرورية في نفسها ، غير انها محتاجة إلى تصور تامّ . فإذا فرضنا حقيقة مثل « أ » مثلاً ، ذات عوارض مثل « ب »، « ج »، « د »، فهذه الحقيقة في ذاتها تقتضي أن تكون « أ »، لا ناقصاً من « أ » والناقص من « أ » ليس هو «أ »، وقد فرضناها «أ ».

وأيضاً هي تقتضي عوارض هي « ب »، « ج »، « د »، وهي هي ، والناقص من « ب »، «ج »، « د »، ليس هو « ب »، « ج »، « د »، وقد فرضناها « ب »، « ج» « د»، لا غير ، وهو ظاهر .

وهذا الذي تقتضيه كلّ حقيقة في ذاتها وعوارضها ؛ هو الذي نسمّيه بالكمال والسعادة .

ثم إنّ حقيقة كلٍّ كمال هي التي تتقيّد في ذاتها بقيد عدمي ، وهو النقص ، فإنّ كلّ كمال فهو في ذاته واجد لذاته ، فلا يفقد من ذاته شيئاً إلّا من جهة قيد عدمي معه بالضرورة . فحقيقة « أ » مثلاً واجدة لما فرض انّه « أ »، فانفصال وجود هذا الشخص من « أ» من ذلك الشخص من « أ» ليس إلَّا لوجود قيد عدمي عند كلّ

واحد من الشخصين ، يوجب فقد حقيقة « أ » في كلّ منهما شيئاً من ذاتها لا من عوارضها ، وهو محال بالانقلاب أو الخلف ، بالنظر إلى ذات « أ » المفروض في ذاته ، بل الفاقد لخصوصية هذا الشخص هو ذلك الشخص من « أ ».

فلحقيقة «أ» مرتبتان : مرتبة في ذاتها لا تفقد فيها شيئاً من ذاتها ، ومرتبة عند هذا الشخص وعند ذلك الشخص فيها يصير شيء من كمالها مفقوداً .

وليس ذلك من التشكيك في شيء، فإنا إذا فرضنا هذا الشخص مرتبة منها ، فهو أيضاً « أ » وعاد المحال ، بل الشخص بحيث إذا فرض معه الحقيقة كان هذا الشخص ، وإذا قطع عنها النظر لم يكن شيئاً إذ لا يبقى معه إلّا قيد عدمي ، فهو هو معها وليس هو دونها ، فليس في مورد الشخص إلّا الحقيقة ، والشخص أمر عدمي وهمي إعتباري .

وهذا المعنى ، هو الذي نصطلح عليه بالظهور ، فافهم !

ويظهر من هنا انّ حقيقة كلّ كمال ، هو المطلق المرسل الدائم منه ، وانّ قرب كلّ كمال من حقيقته بمقدار

ظهور حقيقته فيه ، أي اقترانها بالقيود والحدود . فكلّ ما ازداد ت القيود ، قلّ الظهورُ وبالعكس .

ويظهر من هنا أنّ الحق سبحانه ، هو الحقيقة الاخيرة لكلٍّ كمال . حيث انَّ له صرف كلّ كمال وجمال ، وانّ قرب كلّ موجود منه على قدر قيوده العدمية وحدوده .

ويظهر من ذلك أنّ وصول كلٍّ موجود إلى كماله الحقيقي مستلزم لفنائه ، حيث أنّه مستلزم لفناء قيوده وحدوده في ذاته أو في عوارضه فقط ، وبالعكس فناء كلٍّ موجود مستلزم لبقاء حقيقته في مورده فقط . قال تعالى : ﴿ كلُّ مَن عَلَيها فانٍ ويَبقَى وَجْهُ ربِّك ذو الجَلال والإكرام ﴾[1] .

فالكمال الحقيقي لكلّ موجود ممكن ، هو الذي يفنى عنده . فالكمال الحقيقي للانسان أيضاً هو الذي يصير عند كماله الانساني مطلقاً مرسلاً ويفنى عنده الانسان لا كمال له غير ذلك ألبتة .

وقد مر في البرهان السابق انّ شهود الانسان لذاته الذي هو عين ذاته ، شهود منه لجميع حقائقه ولحقيقته

---

(١) الرحمن /٢٦ ـ ٢٧ .

الأخيرة ، وحيث أنّه فان عند ذلك فالانسان شاهد في عين فنائه .

وإن شئت قلت انّ حقيقته هي الشاهدة لنفسها ، والانسان فان ؛ هذا !

فالكمال الحقيقي للانسان وصوله إلى كماله الحقيقي ذاتاً وعوارض ؛ أي وصوله إلى كماله الاخير ذاتاً ووصفاً وفعلاً ، أي فنائه ذاتاً ووصفاً وفعلاً في الحقّ سبحانه ؛ وهو التوحيد الذاتي والإسمي والفعلي ، وهو تمكّنه من شهود أن لا ذات ولا وصف ولا فعل إلاّ الله سبحانه على الوجه اللائق بقدس حضرته جلّت عظمته ، من غير حلول واتّحاد تعالى عن ذلك .

وهذا البرهان من مواهب الله سبحانه ، المختصة بهذه الرسالة ، والحمد لله .

ثم إنّ المتحصل من البرهان المذكور في أوّل الفصل ، انّ شهود هذه الحقائق ومعرفتها ، منطوية في شهود النفس ومعرفتها .

فأقرب طرق الانسان إليها ، طريق معرفة النفس . وقد تحصّل أيضاً سابقاً انّ ذلك بالإعراض عن غير الله ،

والتوجه إلى الله سبحانه .

تتمـة :

إذا تتبَّعنا الكتاب والسُنّـة ، وتأمّلنـا فيها تـأمّلاً وافيـاً ، وجدنا أنّ المدار في الثواب والعقاب ، هو الاطاعة والانقياد والتمـرّد والعنـاد . فمن المسلّم المحصَّـل منهـما انّ المعـاصي حتى الكبـائر المـوبقة ، لا تـوجب عقابـاً إذا صـدرت ممَّن لا يشعـر بها ، أو من يجـري مجراه ؛ وانّ الـطاعات لا يـوجب ثواباً إذا صـدرت من غير تقـرّب وانقياد ، إلاّ إذا كـانت ممَّا الانقياد ملازم لذاته كبعض الاخلاق الفاضلة الشريفة .

وكذلك صـدور المعصية ممَّن لا يشعـر بكونـه معصية ، إذا قصـد الاطـاعـة لا يخلو من حسن ؛ وصـدور الـطاعـة بقصـد العنـاد واللعب لا يخلو من قبـح ؛ وكـذلـك مـراتب الـطاعة والمعصيـة تختلف حسب اختـلاف الانقيـاد والتمـرّد الذين تشتمل عليهما .

فقـد ورد « أفضل الأعمـال أحمضها » . وورد متـواتراً في متفرقات أبواب الطاعـات والمعاصي اختـلاف مراتبهـا فضلاً وخسّـة ، وثـوابـاً وعقـابـاً . والعقـل السليم أيضـاً حـاكم بذلك . وأكثر الآيات القـرآنية تحيـل الناس إلى مـا يحكم به

العقل ، والميزان بناء على حكم العقل هو الانقياد للحقّ والعناد لا غير . وهذان أمران مختلفان بحسب المراتب بالضرورة .

وحيث انّ السعادة والشقاوة تدوران مدارهما ، فلهما عرض عريض بحسب المراتب الموجودة من الانقياد والتمرّد .

ومن هنا يظهر انّ المختص من السعادة بالمنتحل بدين الحقّ ، إنّما هو كمالها . وأمّا مطلق السعادة فغير مختصّ بالمنتحل بدين الحقّ ، بل ربما وجد في غير المنتحل أيضاً ، إذا وجد فيه شيء من الانقياد ، أو فقد شيء من العناد بحسب المرتبة .

وهذا هو الذي يحكم به العقل ، ويظهر من الشرع ، فإنّما الشرع يعيّن حدود ما حكم به العقل ، كما في الحديث المشهور عنه صلّى الله عليه وآله ، قال : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وذلك كما ورد في كسرى وحاتم ، انّهما غير معذّبين لوجود صفتي العدل والجود فيهما .

وفي الخصال ، عن الصادق ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عليّ عليهم السلام ، قال : « إنّ للجنة ثمانية

أبواب ؛ باب يدخل منه النبيُّون والصدِّيقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبُّونا . فلا أزال واقفاً على الصراط ، أدعو وأقول : ربّ سلِّم شيعتي ومُحبيَّ وأنصاري وأوليائي ومن تولّاني في دار الدنيا . فإذا النداء من بُطنان العرش : قد اجبت دعوتك وشفّعت في شيعتك . ويشفع كلُّ رجل من شيعتي ومن تولّاني ونصرني وحاربني من حاربني بفعل أو قول ، في سبعين من جيرانه وأقربائه . وباب يدخل منه سائر المسلمين ، ممَّن يشهد أن لا اله الّا الله ، ولم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضنا أهلَ البيتُ » .

وفي تفسير القمّي ، مسنداً عن ضُريس الكناسي ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قلت له : جُعلت فداك ! ما حال الموحِّدين المقرِّين بنبوّة محمد صلّى الله عليه وآله من المذنبين الذين يموتون ، وليس لهم إمام ، ولا يعرفون ولايتكم ؟ فقال : « أمّا هؤلاء ، فإنّهم في حفرهم لا يخرجون منها . فمن كان له عمل صالح ، ولم يظهر منه عداوة ، فإنّه يُخدُّ له خدّ الى الجنة التي خلقها الله بالمغرب ، فيدخل عليه الروح الى يوم القيامة ، حتى يلقى الله ، فيحاسبه بحسناته وسيّئاته ، فإمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار ، فهؤلاء المُرجَون لأمر الله . قال : وكذلك يفعل

بالمستضعفين والبُلْه والأطفال وأولادِ المسلمين الذين لم يبلغوا الحُلم . وأمّا النصّاب من أهل القبلة ، فإنّه يخدُّهم خدّ إلى النار التي خلقها الله في المشرق ، فيدخل عليهم اللهب والشرر والدخان وفورة الحميم إلى يوم القيامة ، ثم بعد ذلك مصيرهم إلى الحميم » .

وفي دعاء كميل المرويّ علن عليّ عليه السلام : « فباليقين أقطع لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك ، وقضيت به من إخلاد معانديك ، لجعلت النار كلَّها برداً وسلاماً ، وما كانت لأحد فيها مقرّاً ولا مقاماً ، لكنّك تقدَّسْت أسمائك ، أقسمت أن تملأها من الكافرين من الجنّة والناس أجمعين ، وأن تخلّد فيها المعاندين ، » الدعاء .

وأكثر الآيات القرآنية إنّما توعد الذين قامت لهم البيّنة ، وتمّت عليهم الحجّة ، وتقيّد الكفر بالجحود والعناد .

قال تعالى : ﴿ **وَالذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجَحيم** ﴾(٢) .

---

(٢) المائدة / ١٠ و٨٦ .

وقال تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنة ويَحْيى من حَيَّ عن بيّنة ﴾[٣] .

وبالجملة ، فالميزان كلّ الميزان في السعادة والشقاوة والثواب والعقاب ، هو سلامة القلب وصفاء النفس .

قال سبحانه : ﴿ يومَ لا يَنفَع مال ولا بَنون إلاَّ مَن أتَى الله بقَلب سَليم ﴾[٤] .

وقال سبحانه ﴿ يومَ تُبلَى السرائرُ ﴾[٥] .

وجميع الملل الإلٰهية تروم في تربية الناس هذا المرام .

وهذا مسلم من سلائقها ، وما تندُب إليها ، وهو الذي يراه الحكماء المتألّهون من السابقين .

وأمّا شريعة الاسلام ، فأمرها في ذلك أوضح ، غير أنّها كما مرّ في أواخر الفصل الثاني ، تدعو الى كلّ سعادة ممكنة ، الّا انّ معرفة الرب من طريق النفس حيث كانت أقرب طريقاً ، وأتمّ نتيجة ، فإتيانها لها أقوى وآكد . ولذلك ترى الكتاب والسُّنّة يقصدان هذا المقصد ،

---

(٣) الانفال /٤٢ .

(٤) الشعراء / ٨٩ .

(٥) الطارق /٩ .

ويدعوان إلى هذا المدعى بأيّ لسان أمكن .

قال سبحانه : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا اتَّقوا الله ولْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدَّمتْ لِغَد واتَّقوا اللهَ إنَّ الله خَبير بما تعلمون ولا تكُونُوا كالذين نَسُوا الله فأنْسَيهم أنْفُسَهم أُولئك هم الفاسقون ﴾[٦].

وهذه الآية كعكس النقيض ، لقوله صلَّى الله عليه وآله ، في الحديث المشهور بين الفريقين : « مَن عَرف نفسَه عَرَف ربَّه ، أو : فقد عرف ربَّه » .

قال سبحانه : ﴿ عَليكم أنفُسَكم لا يَضرُّكم مَن ضلَّ إذَا اهْتَدَيْتم ﴾[٧].

وقد روى الآمدي في كتاب « الغرر والدرر » من كلمات عليّ عليه السلام القصار ما يبلغ نيفا وعشرين حديثاً في معرفة النفس .

منها أنه عليه السلام قال : « الكيس مَن عرَف نفسه وأخلص أعماله » .

وقال عليه السلام : « المعرفة بالنفس أنفع

---

(٦) الحشر /١٨ ـ ١٩ .

(٧) المائدة / ١٠٥ .

المعرفتين ».

وقال عليه السلام : « العارف من عرف نفسه ، فأعتقها ، ونزهها عن كلّ ما يبعّدها ».

وقال عليه السلام : « أعظم الجهل ، جهل الانسان أمرَ نفسه ».

وقال عليه السلام : « أعظم الحكمة ، معرفة الإنسان نفسه » .

وقال عليه السلام : « أكثر الناس معرفة لنفسه ، أخوفُهم لربّه ».

وقال عليه السلام : « أفضل العقل ، معرفة الانسان بنفسه ، فمَن عرَف نفسه عقل ، ومن جهلها ضلَّ ».

وقال عليه السلام : « عجبتُ لَمن ينشد ضالَّته ، وقد أضلّ نفسه فلا يطلبها

وقال عليه السلام : « عجبت لمن يجهل نفسه ، كيف يعرف ربَّه ؟».

وقال عليه السلام : « غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه ».

وقال عليه السلام : « كيف يعرف غيرَه من يجهل

نفسَه ؟».

وقال عليه السلام : « كفى بالمرء معرفة أن يعرف نفسه ».

وقال عليه السلام : « كفى بالمرء جهلاً أن يجهل نفسه ».

وقال عليه السلام : « من عرف نفسه ، تجرّد ».

وقال عليه السلام : « من عرف نفسه جاهدها ».

وقال عليه السلام : « من جهل نفسه أهملها ».

وقال عليه السلام : « من عرف نفسه عرف ربّه ».

وقال عليه السلام : « من عرف نفسه جلّ أمره ».

وقال عليه السلام : « من جهل نفسه كان بغيره أجهل ».

وقال عليه السلام : « من عرف نفسه كان بغيره أعرف ».

وقال عليه السلام : « من عرف نفسه ، فقد انتهى إلى غاية كلّ معرفة وعلم ».

وقال عليه السلام : « من لم يعرف نفسه ، بَعُد عن سبيل النجاة ، وخبط في الضلال والجهالات ».

وقال عليه السلام : « معرفة النفس أنفع المعارف » .

وقال عليه السلام : « نال الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس ».

وقال عليه السلام : « لا تجهل نفسك ؛ فإنّ الجاهل معرفةَ نفسه ، جاهل كلّ شيء ».

أقول : وهذه الأحاديث تدفع ، كما ترى ، تفسير من يفسّر من العلماء (ره) قوله صلّى الله عليه وآله : من عرف نفسه فقد عرف ربّه ، الحديث ، بأنّ المراد استحالة معرفة النفس لتعليقها بمعرفة الربّ ، وهو مستحيل ؛ ويدفعه ظاهر الروايات السابقة ، وقوله صلّى الله عليه وآله : « أعرفكم بنفسه أعرفكم بربّه ، الحديث النبوي».

مع انّ معرفته سبحانه لو كانت مستحيلة ، فانّما هي المعرفة الفكرية من طريق الفكر ، لا من طريق الشهود ومع التسليم ، فانما المستحيل معرفته بمعنى الإحاطة التامّة .

وأمّا المعرفة بقدر الطاقة الإمكانية فغير مستحيلة . هذا !

وبالجملة فكون معرفة النفس أفضل الطرق وأقربها إلى الكمال ، مما لا ينبغي الريب فيه وإنّما الكلام في كيفية

السير من هذا المسير .

فقد زعم بعض أنّ كيفية السير من هذا الطريق غير مبيِّنة شرعاً ؛ حتى ذكر بعض المصنِّفين انّ هذِا الطريق في الإسلام كطريق الرهبانية التي ابتدعتها النصارى من غير نزول حكم إلٰهي به ، فقبل الله سبحانه ذلك منهم .

فقال سبحانه : ﴿ ورُهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاءَ رِضوان الله فما رَعَوْها حقَّ رِعايتها ﴾[8] الآية .

قال : فكذلك طريق معرفة النفس غير واردة في الشريعة ، إلّا انّها طريقة إلى الكمال مرضية ، انتهى ملخّصاً .

ومن هنا ربما يوجد عند بعض أهل هذا الطريق وجوه من الرياضات ومسالك مخصوصة ، لا تكاد توجد أو لا توجد في مطاوي الكتاب والسُنّة ، ولم يشاهَد في سيرة رسول الله صلّى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته عليهم السلام .

وذلك كلّه بالبناء على ما مرَّ ذكره ، وانّ المراد هو العبور والوصل بأيّ نحو أمكن بعد حفظ الغاية . وكذلك

---

(٨) الحديد /٢٧ .

الطرق المأثورة عن غير المسلمين من متألّهي الحكماء وأهل الرياضة ، كما هو ظاهر لمن راجع كتبهم ، أو الطرق المأثورة عنهم .

لكنّ الحقَّ الذي عليه أهل الحقّ ، وهو الظاهر من الكتاب والسُنة انّ شريعة الإسلام لا يجوِّز التوّجه إلى غير الله سبحانه للسالك إليه تعالى بوجه من الوجوه ، ولا الاعتصام بغيره سبحانه إلّا بطريق أمرَ بلزومه وأخذه .

وإنّ شريعة الاسلام لم تهمل مثقال ذرّة من السعادة والشقاوة إلّا بيّنتها ، ولا شيئاً من لوازم السير إلى الله سبحانه يسيراً أو خطيراً إلّا أوضحتها ؛ فكلّ نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

قال سبحانه : ﴿ ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلِّ شيء ﴾[9].

وقال سبحانه : ﴿ ولقَد ضَرَبْنا للنَّاس في هذَا القرآن مِن كلِّ مَثَل ﴾[10].

وقال سبحانه: ﴿ قُل إن كُنتم تحبُّون الله فاتَّبعوني

---

(٩) النحل / ٨٩ .

(١٠) الروم/ ٥٨ .

يُحْبِبْكم الله ﴾[11].

وقال سبحانه : ﴿ولكم في رَسول الله أُسوةٌ حَسَنَة ﴾[12].

إلى غير ذلك ؛ والأخبار في هذا المعنى من طريق أهل البيت مستفيضة بل متواترة .

وممًّا يظهر انّ حظَّ كلّ امرء من الكمال بمقدار متابعته للشرع ، وقد عرفت انّ هذا الكمال أمر مشكِّك ذو مراتب . ونعم ما قال بعض أهل الكمال انّ الميل من متابعة الشرع إلى الرياضات الشاقة ، فرار من الأشقّ إلى الأسهل . فانّ اتبّاع الشرع قتل مستمرّ للنفس ، دائمي ما دامت موجودة ؛ والرياضة الشاقة قتل دفعي ، وهو أسهل ايثاراً .

وبالجملة ، فالشرع لم يهمل بيان كيفية السير من طريق النفس .

بيان ذلك : إنّ العبادة تتصور على ثلاثة اقسام :

أحدها : العبادة طمعاً في الجنّة .

---

(١١) آل عمران / ٣١ .

(١٢) الأحزاب / ٢١ .

والثاني : العبادة خوفاً من النار .

والثالث : العبادة لوجه الله ، لا خوفاً ولا طمعاً .

وغير القسم الثالث ، حيث انّ غايته الفوز بالراحة ، أو التخلص من العذاب ، فغايته حصول مشتهى النفس .

فالتوجه فيه إلى الله سبحانه إنّما هو لحصول مشتهى النفس ؛ ففيه جعل الحقّ سبحانه واسطة لحصول المشتهى .

والواسطة ، من حيث هي واسطة ، غير مقصودة إلاّ بالتبع والعرَض ؛ فهي بالحقيقة ليست إلاّ عبادة للشهوة .

بقي القسم الثالث ، وهو العبادة بالحقيقة ؛ وقد وقع التعبير عنه مختلفاً .

ففي الكافي ، مسنداً عن هارون ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال :

« العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله عزَّ وجلَّ خوفاً ، فتلك عبادة العبيد .

وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب ، فتلك عبادة الأُجَراء .

وقوم عبدوا الله عزَّ وجلَّ حبّاً له ، فتلك عبادة

الأحرار وهي أفضل العبادة ».

وفي نهج البلاغة : « إنّ قوماً عبدوا الله رغبة ، فتلك عبادة التجّار ؛ وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ؛ وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً ، فتلك عبادة الأحرار ».

وفي العلل ، والمجالس ، والخصال ، مسنداً عن يونس عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام : « إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه ؛ فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه ، فتلك عبادة الحرصاء ، وهو الطمع ؛ وآخرون يعبدونه خوفاً من النار ، فتلك عبادة العبيد ، وهي رهبة ؛ ولكنّي أعبده حبّاً له عزَّ وجلّ ، فتلك عبادة الكرام ، لقوله عزَّ وجلّ : ﴿ وهُم مِن فَزَع يومئذ آمِنون ﴾[13] ، ولقوله عزَّ وجلّ : ﴿ قُل إنْ كُنتم تُحِبُّون الله فاتَّبِعوني يُحْبِبْكم الله ﴾[14] ، فمن أحبَّ الله عزَّ وجلّ ، أحبَّه الله ؛ ومن أحبَّه الله كان من الآمنين ، وهذا مقام مكنون لا يمسُّه إلاَّ المطَّهرون » .

وعن المناقب ، كان ـ يعني رسول الله ، صلَّى الله عليه وآله يبكي حتى يغشى عليه ، فقيل له : أليس قد غفر الله

---

(١٣) النمل / ٨٩ .
(١٤) آل عمران / ٣١ .

لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟» الحديث .

أقول : والشكر والحبّ مرجعهما واحد . فإنّ الشكر هو الثناء على الجميل من حيث هو جميل ، فتكون العبادة توجّهاً وتذلّلاً له سبحانه لأنّه جميل بالذات ، فهو سبحانه هو المقصود لنفسه لا لغيره كما قال سبحانه : ﴿ **مَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاّ لِيَعْبُدونِ** ﴾[15].

فغاية خلقهم ، أي وجودهم ، أي كمال وجودهم ، هو عبادته سبحانه ، أي التوجّه إليه وحده . والتوجّه وسط غير مقصود بالذات . فهو سبحانه غاية وجودهم ، ولذا فسِّر العبادة ها هنا في الأخبار بالمعرفة .

وقال سبحانه : ﴿ **وقَضَى ربُّك ألاّ تَعْبُدوا إلاّ إيَّاهُ** ﴾[16].

وقال سبحانه : ﴿ **هُوَ الحيُّ لا إلهَ إلاّ هُوَ فَادْعوه مُخْلِصِينَ لَه الدّين** ﴾[17].

---

(١٥) الذاريات /٥٦ .
(١٦) الاسراء /٢٣ .
(١٧) غافر /٦٥ .

وكذلك الحبُّ انجذاب النفس إلى الجميل من حيث هو جميل ، وعنده سبحانه الجمال المطلق .

وقال سبحانه : ﴿ قُل إن كُنتم تُحِبُّون الله فاتَّبعوني ﴾[١٨] .

وقال سبحانه : ﴿ والذين آمنوا أشدُّ حباً لله ﴾[١٩] وسيأتي رواية الدّيلمَي .

وفي دعاء كميل : « واجعل . . . قلبي بحبك متيماً »

وفي مناجاة علي عليه السلام : « إلهي أقمني في أهل ولايتك مقام من رجا الزيادة من محبتك »

وحديث الحبّ كثير الدور في الأدعية .

وإن تعجب ، فعجب قول من يقول انّ المحبة لا تتعلّق به سبحانه حقيقة ، وما ورد من ذلك في خلال الشريعة ، مجاز يراد به امتثال الأمر والإنتهاء من النهي . وهذا دفع للضرورة ، ومكابرة مع البداهة .

ولعمري كم من الفرق بين من يقول انّ المحبة لا

---

(١٨) آل عمران / ٣١ .

(١٩) البقرة / ١٦٥ .

تتعلق بـالله سبحـانـه ، ومن يقـول انّ المحبـــة لا تتعلق إلاّ بالله سبحانه .

ولنرجع إلى مـا كنّا فيـه ، ونقول : حيث انّ العبـادة ، وهـو التوجّـه إلى الله سبحانـه ، لا تتحقق من دون معـرفـة مّـا ، وإن كـانت هي أيضـاً مقـدّمـة أو محصّلة للمعـرفـة ، فإتيانها بحقيقتها المقدورة يحتاج إلى سير في المعرفة .

وإن كانتا كالمتلازمتين كما في خبر إسماعيـل بن جابـر ، عن الصادق عليه السـلام : « العلم مقرون بـالعمل ؛ فمن علم عمل ، ومن عمل علم . الحديث » .

وبعبـارة أُخـرى يلزم أن تقـع العبـادة عن معـرفـة حتى تنتـج معرفـة ، كما في النبـوي ، قال صـلى الله عليه وآلـه : « مـن عمــل بمــا عـلم ، رزقــه الله علم مــا لم يـعـلم . الحديث » . وهو معنى قول الله سبحانـه : ﴿ **مَن كان يُـريدُ حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ له في حَرْثِهِ ومَن كـان يُريـدُ حَرْثَ الـدنيا نُؤْتِهِ منها ومَـالَه في الآخـرة من نَصيب** ﴾[٢٠]، لما تـرى من تفاوت الجزائين في الآية .

وكـذا قـولــه تعـالى : ﴿ **إليــه يَصْعَـدُ الكلِمُ الــطَّيِّبْ**

(٢٠) الشورى / ٢٠ .

والعملُ الصالحُ يَرْفَعُه ﴾[٢١] .

والاعتبار العقلي أيضاً يساعده ؛ فإنّ الحبّ أو الشوق إلى الشيء ، هو الموجب للتوجّه إليه ؛ والتوجّه ، وهو العمل ، يثبت الحبّ والشوق ، وذلك العلم ؛ وكلّما تأكّد ثبوت الشيء ، ثمَّ ظهور آثاره وكلّ ما يرتبط به ويتعلّق عليه .

وبالجملة فهذه المعرفة المحتاج إليه العمل ، يتصوَّر تحصيله على أحد وجهين : سير آفاقي ، وسير أنفسي .

والأوّل هو التفكّر والتدبّر ، والاعتبار بالموجودات الآفاقية الخارجة عن النفس من صنايع الله وآياته في السماء والأرض ، ليورث ذلك اليقينَ بالله وأسمائه وأفعاله ، لأنّها آثار وأدلّة ، والعلم بالدليل يوجب العلم بالمدلول بالضرورة .

والثاني هو الرجوع إلى النفس ، ومعرفة الحقِّ سبحانه من طريقها . إذ هي غير مستقلّة الوجود محضاً ، ومعرفة ما هو كذلك من حيث هو كذلك ، لا تنفكُّ عن معرفة المستقل الذي يقوِّمه ، أو المعرفتان واحد بوجه .

---

(٢١) فاطر / ١٠ .

فهذان طريقـان ، إلّا انّ الحقَّ انّ السير الآفـاقي وحده لا يـوجب معرفـة حقيقية، ولا عبـادة حقيقية ، لأنّ ايجـاب الموجودات الآفاقية للمعرفة ، إنّما هو لكـونها آثاراً وآيـات ؛ لكنها توجب علماً حصولياً بوجود الصانع تعالى ، وصفاته .

وهذا العلم متعلّق بقضية ذات مـوضوع ومحمـول واقع عليها ، وهما من المفاهيم .

والحقّ سبحـانه ، قـد قام البـرهان عـلى انّـه سبحـانـه وجـود محض ، لا مهيّة لـه ، فيستحيل دخـوله في الـذهن ، لاستلزام ذلـك مهيّـة خـاليـة في نفسهـا عن الـوجـودين ؛ موجودة تارة بوجود خارجي ، واُخـرى بوجـود ذهني ، وهي مفقودة ها هنا .

فكلُّ ما وضعه الذهن ، وتصـوّره واجباً ، وحكم عليـه بمحمـولاتـه من الأسـماء والصفـات ، فهـو غيـره سبحـانـه ألبتّة .

وإلى ذلـك يشير مـا في توحيـد الصـدوق ، مسنـداً عن عبـد الأعـلى ، عن الصـادق عليـه السـلام ، في حـديث : « ومن زعـم أنّـه يعـرف الله بحجـاب أو بصـورة أو بمثـال ، فهو مشرك ؛ لأنّ الحجاب والصورة والمثـال غيره ، وإنّمـا هو واحد موحَّد ، فكيف يوحّـد من زعم انّه عـرفه بغيـره ؟ إنّما

عرف الله من عرفه بالله ؛ فمن لم يعرفه به ، فليس يعرفه ، إنّما يعرف غيره . ليس بين الخالق والمخلوق شيء ، والله خالق الأشياء لا من شيء ، يسمّى بأسمائه ، فهو غير اسمائه ، والأسماء غيره ، والموصوف غير الواصف . فمن زعم انّه يؤمن بما لا يعرف ، فهو ضالّ عن المعرفة . لا يدرك مخلوق شيئاً إلا بالله ، والله خِلو من خلقه ، وخلقه خِلو منه ، الحديث » .

قوله عليه السلام : « وإنّما هو واحد موحَّد »، أي واحد محض لا كثرة فيه . فيه اشارة إلى « برهان امتناع أن يكون معرفة الغير مستلزمة لمعرفته سبحانه »؛ بأن يقال : إنّ العلم عين المعلوم بالذات ، كما برهن عليه في محلّه ، فيمتنع أن يكون العلم بالشيء علماً بشيء آخر مباين له ، وإلّا كان المتباينان واحداً ، هذا خلف .

فاستلزام العلم بشيء علماً بشيء آخر ، موجب لوجود اتّحاد ما بين الشيئين . وحيث فرضا شيئين ، ففيهما جهة اتحاد ، وجهة اختلاف . فكلّ منهما مركب من جهتين ، والحقُّ سبحانه واحد بسيط الذات ، لا تركّب فيه بوجه . فيمتنع أن يعرف بغيره ، وإليه يشير عليه السلام بقوله : « ليس بين الخالق والمخلوق شيء . . . ». وقوله عليه السلام : « فمن زعم أنّه يؤمن بما لا يعرف ، فهو ضالّ

عن المعرفة . . »، تفريع لقوله عليه السلام السابق : « إنّما عرف الله من عرفه بالله . . . ».

وقوله : « لا يدرك مخلوق شيئاً إلاّ بالله »، بمنزلة البرهان عليه ، بانّ كلّ شيء معروف بالله الذي هو نور السموات والأرض ، فكيف يعرف بغيره ؟ لأنّه مقوّم كلّ ذات غير متقوم بالذات . والعلم بغير المستقلّ ذاتاً بعد العلم بالمستقلّ الذي يقوّمه ، لأنّ وقوع العلم يقتضي استقلالاً في المعلوم بالضرورة ، فالعلم بغير المستقلّ إنّما هو يتبع المستقل الذي هو معه ؛ هذا !

وحيث أوهم ذلك حلولاً أو اتّحاداً تعالى الله عن ذلك ، أعقب عليه السلام ذلك بقوله : « والله خلو من خلقه وخلقه خلو منه . . . ».

والقول بكون إدراك المخلوق كلّ شيء بالله ، لا ينافي صدر الرواية من نفي استلزام العلم بالشيء علماً بغيره ؛ لأنّ العلم الذي في صدر الرواية علم حصولي ، والذي في الذيل حضوري ؛ هذا !

والروايات في نفي أن تكون المعرفة الفكرية معرفة بالحقيقة ، كثيرة جداً .

فقد تحصّل أنّ شيئاً من هذه الطرق ، غير طريق

معرفة النفس ، لا يوجب معرفة بالحقيقة .

وأمّا طريق معرفة النفس فهو المنتج لذلك . وهو أن يوجّه الانسان وجهَه للحقِّ سبحانه ، وينقطع عن كلّ صارف شاغل عن نفسه إلى نفسه ، حتّى يشاهد نفسه كما هي ، وهي محتاجة لذاتها إلى الحقّ سبحانه .

وما هذا شأنه ، لا ينفكُّ مشاهدته عن مشاهدة مقوّمه ، كما عرفت . فإذا شاهد الحقَّ سبحانه ، عرفه معرفة ضرورية ، ثم عرف نفسه به حقيقة ، لكونها قائمة الذات به سبحانه ؛ ثم يعرف كلَّ شيء به تعالى .

وإلى هذا يشير ما في تحف العقول ، عن الصادق عليه السلام، في حديث : « من زعم أنّه يعرف الله بتوهّم القلوب ، فهو مشرك ؛ ومن زعم أنّه يعرف الله بالإسم دون المعنى ، فقد أقرَّ بالطعن ، لأنّ الإسم محدث ؛ ومن زعم أنّه يعبد الإسم والمعنى ، فقد جعل مع الله شريكاً ؛ ومن زعم أنّه يعبد بالصفة لا بالإدراك ، فقد أحال على غائب ؛ ومن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة ، فقد صغَّر بالكبير ؛ »﴿وما قدروا الله حقَّ قدره﴾[٢٢] .

---

(٢٢) الانعام / ٩١ .

قيل له : فكيف سبيل التوحيد ؟ قال عليه السلام : « باب البحث ممكن ، وطلب المخرج موجود . إنّ معرفة عينِ الشاهد قبل صفته ، ومعرفة صفة الغايب قبل عينه ».

قيل : وكيف تعرف عين الشاهد قبل صفته ؟ قال عليه السلام : « تعرفه ، وتعلم علمه ، تعرف نفسك به ، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك ، وتعلم أنّ ما فيه له وبه ، كما قالوا ليوسف : ﴿ أإنَّك لأنتَ يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾[٢٣]، فعرفوه به ، ولم يعرفوه بغيره ، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب . الخبر ».

قوله عليه السلام : « وتعلم عَلَمه . . . » بفتح العين واللام بمعنى العلامة ؛ أو خصوص الإسم ، أي تعرفه ، ثم تعلم علائمه وأوصافه به ونفسك به ، لا بغيره ؛ وكونه بكسر العين وسكوت اللام ، يوجب تكلّفاً في التوجيه .

وأنت بعد التأمّل في معنى هذه الرواية الشريفة التي هي من غرر الروايات وخاصّة في تمثيله بمعرفة إخوة يوسف عليه السلام له ، تقدر أن تستخرج جميع الأصول

(٢٣) يوسف / ٩٠ .

الماضية في الفصول السابقة من هذه الرواية وحدها ، فلا نطيل البيان .

وبالجملة فإذا شاهد ربَّه ، عرفه وعرف نفسه وكلَّ شيء به ، وحينئذ يقع التوّجه العبادي موقعه ، ويحلّ محلّه ، إذ بدونه كلٌّ ما توجَّهنا إليه فقد تصوّرنا شيئاً ، كائناً ما كان . وهذا المفهوم المتصوّر ، والصورة الذهنية ، وكذا مطابقة المحدود المتوهّم ، غيره سبحانه . فالمعبود غير المقصود .

وهذا حال عبادة غير العارفين من العلماء بالله ، وقبول هذا النحو من العبادة مع ما عرفت من شأنها من فضل الله تعالى محضاً .

قال سبحانه : ﴿ ولَوْلَا فَضْلُ الله عَليكم ورَحْمَتُه ما زكَى مِنكم مِن أحد أبداً ﴾[٢٤] .

وهذا بخلاف عبادة العارفين بالله المخلصين له ، فإنّهم لا يتوجَّهون في عبادتهم لا إلى مفهوم ، ولا إلى مطابق مفهوم ، بل إلى ربِّهم جلَّت عظمته وبهر سلطانه .

قال سبحانه : ﴿ سُبْحانَ الله عمَّا يَصِفون إلاّ عبادَ اللهِ

---

(٢٤) النور /٢١ .

الْمُخْلَصين ﴾[٢٥]. ومن هنا يظهر أنّ المراد بالمخلَصين، هم الذين أُخلصوا (بالبناء للمجهول) لله سبحانه ؛ فلا حجاب بينهم وبينه، وإلّا لم يقع وصفهم موقعه. وحيث انّ الخلق هم الحجاب، كما قال سيدنا موسى بن جعفر عليه السلام : « لا حجاب بينه وبين خلقه إلّا خلْقه، الحديث »، فهم لا يرون الخلق وانّما يقصدون الحقَّ سبحانه.

وفي تفسير العسكري عليه السلام، وقال محمّد بن علي الباقر عليه السلام : « لا يكون العبد عابداً لله حقَّ عبادته حتّى ينقطع عن الخلق كلِّهم إليه. فحينئذ يقول : هذا خالص لي ؛ فيقبله بكرمه ».

وقال جعفر بن محمّد عليه السلام : « ما أنعم الله على عبد أجلَّ من أن لا يكون في قلبه مع الله غيره ».

وقال محمّد بن علي يعني الجواد عليه السلام : « أفضل العبادة، الإخلاص ».

وممَّا مرَّ من البيان أيضاً يظهر معنى قوله سبحانه حكاية عن إبليس : ﴿ فَبِعزتكَ لأغْوِينَّهم أجمعين إلَّا عبادَك مِنْهُم

---

(٢٥) الصافات / ١٦٠.

المُخلَصين ﴾[٢٦]؛ وقوله سبحانه : ﴿ إنّهم لَمحضَرون إلاّ عبادَ الله المُخلَصين ﴾[٢٧]، الآيات .

إذ هؤلاء مستغرقون فيه سبحانه ، ولا يرون إبليس ، ولا وسوسته ولا إحضاراً ، ولا حساباً ، وإليه الإشارة في الحديث القدسي : « أوليائي تحت قبائي ، أو ردائي »، وإلى ذلك يرجع الحديث الأمن المتقدّم المروي عن يونس .

والمحصَّل انّ طريق معرفة النفس هي الموصلة إلى هذه الغاية ، وهي أقرب الطرق فحسب . وذلك بالإنقطاع عن غير الله ، والتوجّه إلى الله سبحانه بالإشتغال بمعرفة النفس كما يحصَّل عن خبر موسى عليه السلام المتقدّم : « ليس بينه وبين خلقه حجاب إلاّ خلقه ؛ فقد احتجب بغير حجاب محجوب ، واستتر بغير ستر مستور ، الحديث ».

وهذا الحديث الشريف أجمل بيان لأحسن طريق . فيبتدى بالأسباب الواردة شرعاً للإنقطاع ، من التوبة ، والإنابة ، والمحاسبة ، والمراقبة ، والصمت ، والجوع ، والخلوة ، والسهر ، ويجاهد بالاعمال والعبادات ؛ ويؤيّد

---

(٢٦) ص /٨٣ .

(٢٧) الصافات /١٢٨ .

ذلك بالفكر والإعتبار ، حتى يورث ذلك انقطاعاً منها إلى النفس ، وتوجّهاً إلى الحقّ سبحانه ، ويطلع من الغيب طالع ، ويتعقّبه شيء من النفحات الإلٰهية والجذبات الربانية ، ويوجب حبّاً وإشرافاً ، وذلك هو الذكر .

ثم لا يزال بارق يلمع ، وجذبة تطلع ، وشوق يدفع ، حتى يتمكّن سلطان الحبّ في القلب ، ويستولي الذكر على النفس ، فيجمع الله الشمل ، ويختم الأمر وانّ إلى ربّك المُنْتَهى .

واعلم أنّ مَثَل هذا السائر الظاعن مَثل من يسلك طريقاً قاصداً إلى غاية . فإنّما الواجب عليه أن لا ينسى المقصد ، وأن يعرف من الطريق مقدار ما يعبر منه ، وأن يحمل من الزاد قدر ما يحتاج إليه .

فلو نسي مقصده آناً مّا هام على وجهه حيران ، وضلّ ضلالاً بعيداً .

ولو ألهاه الطريق ومشاهدته وما فيه ، بطل السير ، وحصل الوقوف .

ولو زاد حمل الزاد ، تعوّق السعي ، وفات المقصد . والله المستعان سبحانه .

فإن قلت : هب انّه ثبت بهذا البيان على طوله أنّ أقرب الطرق إلى الله سبحانه طريق معرفة النفس ، لكن لم يثبت بذلك وجود بيان خاص في الشريعة لهذا الطريق ، يتبيّن به كيفية الدخول والخروج فيه ، وشؤون سلوكه على دقته وخطره وكثرة اهواله ومخاطره وعظم تهلكته وبواره . فأين البيان الوافي بجميع هذه الخصوصيات الفارق بين المنجيات والمهلكات ؟ .

قلت : قد أشرنا في الفصل الثاني من هذه الرسالة إلى أنّ البيانات الواردة في الكتاب والسُّنة بيان واحد ، وإنّما الاختلاف في ناحية الأخذ والتفاوت في إدراك المدركين .

والسير إليه سبحانه ، الذي هو أيضاً نتيجة الفهم والعلم ، يختلف باختلافه ، وينشعب بانشعابه .

ولعمري هو من الوضوح بمكان . وقد ذكرنا هناك انّ الناس على طبقات مختلفة ، كل طبقة تأخذ على طبق فهمه ، ويعمل على وَتيرته .

فإذا فرضنا واحداً من العامّة ، وبغيته الدنيا وزخارفها ، يبيت وهو يفكّر في تدبير معاش غده ، كيف يبيع ويشتري ؟ وأين يذهب غداً ؟ ومن يلاقي ؟ ويصبح ، وهمّه تدبير أمر يومه ، وإصلاح شأنه في الدنيا .

إذا سمـع داعيَ الله بشيراً ونـذيـراً يبّشر بمغفـرة من الله ورضـوان وجنات لهم فيهـا نعيم مقيم ، ويُنذر بنـار وَقودهـا النـاس والحجارة وسـائـر مـا أعـدَّ الله للظالمين ؛ فلقصـور همّتـه ، واختصاص همّـه بما يشبعـه ويرويـه ، لا يجد مجـالاً للغور في آيات الله وكلماته . وإنّما يؤمن بإجمـال ما سمـع ، ويـدين من الأعمال الصـالحة بمـا لا يـزاحم مـا يبتغيـه من الدنيا . فـالدنيـا عنده هـو الأصل ، والـدين تبع ؛ فلذلـك يضادُّ فعلُه قولَه ، وعملُه علمَه .

تـراه يقول : إنّ الله سميـع بصير ، وهـو يقتـرف كـلَّ منكر ، ويترك كلَّ واجب .

وتـراه يؤمن بانّ الله هـو الـوليّ ، وإليـه المصيـر ؛ وهـو يخضع ويعبد كـلَّ وليّ من دون الله ، ويهرع إلى كـلّ شيطان يـدعوه إلى عـذاب السعير إذا استشعـر هناك يسـير شيء من زخـارف الدنيـا ؛ ولا يرقى فهمـه إن استفهمته أنّـه لا يرى غير الجسم والجسمانيات شيئاً ، وفوق هذه الأوهـام الدائـرة أمراً .

يؤمن بأنّ لله عرشاً يصدر عنـه أحكام خلقـه ، ويُجريـه عمال ملائكته في السموات والأرض ، وهي ملكـه ، واولوا العقـل من الخلق رعيّته ، وهم هـذه الأبدان المحسـوسـة ،

كلّفهم بتكاليف ما دارت الدنيا على الإختيار ، ثمّ يميت الله الخلق ، ويعدمهم بعد الوجود . ثم يأتي على الدنيا وهي خربة يوم يحيى الله فيه الخلق ، ويجمعهم ليوم الجمع ، ثم يجزي الصالحين بجنة ما فيها غير مشتهى النفس ، وهي البدان الدنيوي ؛ والظالمين بنار ما فيها غير اللهب والشرر . كلّ ذلك على نسق ما يتّخذه الملك منا من لوازم الأبّهة والعزّة وإجراء الحكم ومجازاة الرعية وسياسة المللك ، لا شيء أرفع من ذلك .

فهذه طبقة ، وذلك مقامهم في العمل والعلم .

وإذا فرضنا واحداً من الزاهدين والعابدين ، وهم الناظرون بنظر الإعتبار إلى فناء الدنيا وزخارفها وغرورها ونفادها ، وبقاء ما عند الله سبحانه ، المستعدّون للزهد والعبادة ، سمع داعيَ الحقّ يدعوه إلى الانسلال من أكاذيب مشتهيات الدنيا ، والإقبال إلى عبادة الله ، لتحصيل النجاة من أليم العذاب والفوز بنعمة لا تفنى ، وملك لا يبلى ، تمكّنت خشية الله في قلبه ، وصار الموت نصب عينه . فأخرجت حبّ الدنيا وهمّ المعاش من قلبه ، ولم يكن له همّ إلاّ الزهد عن الدنيا ، أو صالح العمل لله طمعاً في مرضاته . فيهذّب صفات نفسه ، ويصلح جهات

عمله ، ويتّقي ما يسخط الله سبحانه فيما يستقبله . كلّ ذلك طمعاً في نعيم مخلّد ، وحذراً من عذاب سرمد .

ولو أجدت التأمّل في حاله ، وما يريده في مجاهدته ، وجدته لا يريد إلّا مشتهى نفسه، فهو يحبُّ نفسه لما سمع من الحقّ انّها خلقت للبقاء لا للفناء ، فيحبُّها ، ويحبُّ مشتهاها ، ويزهد في الدنيا لما يرى من فنائها وزوالها .

فلو انّ الدنيا دامت بأهلها ، وتخلّد نعمها ومشتهياتها ، وانمحت عنها مكارهها ، لم ينقص من مبتغى هذا العامل المجاهد شيئاً . ومن هنا تعلم أنّ الكمال عند هذا الرجل ، هو مشتهيات النفس من النعم الدنيوية المادّية ؛ لكنّه يراها مقرونة بالنواقص والموانع ، فيطلب مشتهيات من جنسها خالية من كدوراتها . فيرى الدار الآخرة من عرصات الدنيا وخواتمها ، ويعتقد أنّ يوم القيامة من أيّامها .

فنفسه واقفة على هذه المرتبة الجسمية ، لم ترقَ عنها ليأسها عن أشرف منها . فلا يريد كمالاً أشرف من الكمال الجسمي ، إذا لم يعهده ولم يعتقد به . فهو نازل عن مرتبة العلم بالله ، واقف في مرتبة العمل ، يتقلّب بين أطوار الحياة من قول وعمل وخلق حسن كأنّ أستار الغيب

مـرتفعة عنـه ، وكـأنّ مـا وراء الحجـاب مكشـوف لـه ، لا يستفزُّ عن عينه ، وليس كذلك .

وهـو المأيـوس عن مشـاهـدة مـا وراء الحجـاب ، وقـد وطّن نفسه لما بعـد الموت . فـإنّما لـه صالـح العمل وجـزيل الثواب فحسب ، لا يرزق خيراً من ذلك .

﴿ وَلَـو بَسَطَ الله الرزقَ لِعبـاده لَبَغَوْا في الأرِضِ وَلٰكنْ يُنَزِّلُ بقَدَرٍ مَّا يشاء إنّه بِعِباده خَبير بَصير ﴾[٢٨] .

وهؤلاء أيضـاً طـبقـة ، وذلـك مـقـامهـم في العـلم والعمـل ؛ يشتركـون الطبقـةَ الاولى في العلم ، ويفتـرقـون عنهم في العمل .

وإذا فـرضنا واحـداً من المحبِّين المشتـاقين ، وهـو رجل أخـذته بـارقة الحبِّ ، وجـذبته جـذبة الشـوق إلى لقـاء الله سبحـانه ؛ فـانهدَّت أركانـه ، واضطربت أحشـائه ، وحـار قلبه ، وطار عقله ، وانسلَّ عن الدنيـا وزخارفهـا ، ولم يقع همّـه عـلى العقبى ونعيمهـا ، ولا دين للمحبّ إلاّ المحبـوب ولا مطلوب له إلاّ المطلوب .

إذا سمـع الله سبحـانـه يقـول لعبـاده : ﴿ لاَ تَغُـرَّنَّكم

(٢٨) الشورى / ٢٧ .

الحَيٰوةُ الدنيا ولاَ يَغُرَّنّكم بِالله الغَرُور ﴾[٢٩]، ويقول : ﴿ إِنَّما الحيٰوةُ الدنيا لَعِب ولَهْو ﴾[٣٠]، ذمَّ الدنيا وزخارفها ، وأعرض عن زخارفها لأنّه سبحانه يذمُّها ، ولو انّه مدحها لمدحها على فنائها وخسّتها .

وإذا سمعه سبحانه يقول : ﴿ وإنَّ الدار الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوان ﴾[٣١]، مدح الآخرة لأنّه سبحانه يمدحها ؛ ولو أنّه ذمها ، لذمَّها على بقائها وشرفها .

وإذا سمعه سبحانه يقول : ﴿ أوَلَم يَكْفِ بربِّك أنَّه على كلِّ شيء شَهيد ﴾[٣٢]، و﴿ إنَّه بكلِّ شيَء مُحيط ﴾[٣٣]، و﴿هو معكم أينما كنتم ﴾[٣٤]، و﴿ هُوَ قائِم عَلى كلِّ نفس بمَا كَسَبَت ﴾[٣٥]، لم يبقَ شيء إلاّ وتعلّق قلبه به ، واعتكفت نفسه عليه ، لا للعب يلعبه . وما للمحبّ الحيران وللعب ؟ بل لأنّ ربّه سبحانه قائم على

---

(٢٩) لقمان / ٣٣ .
(٣٠) محمد صلّى الله عليه وآله / ٣٦ .
(٣١) العنكبوت / ٦٤ .
(٣٢) فصلت / ٥٣ .
(٣٣) فصلت / ٥٤ .
(٣٤) الحديد / ٤ .
(٣٥) الرعد / ٣٣ .

اعمال كلّ شيء شيء ، قريب منه ومعه ، شهيد عليه ، محيط به ؛ فهو يسعى نحوه سبحانه ، ويقصده لكن بالاشياء لا وحده .

وإذا سمعه سبحانه يقول : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا عَليكم أنفُسَكم لا يَضُرُّكم مَن ضلَّ إذا اهْتَدَيْتم ﴾[٣٦]، تفطن أنّ تعلقه بنفسه ليس كتعلّقه بغيرها من الأشياء ، وانّه الإهتداء إلى مطلوبه ألبتّة . وهو سبحانه جعله (أي المحبَّ) سالكاً إليه ، إذ قال : ﴿ يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادِحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فَمُلاقِيه ﴾[٣٧]. وإذا سمعه سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذكرِ ربِّه يَسْلُكْهُ عذاباً صَعَداً ﴾[٣٨]، ويقول : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكر الرَّحمنِ نُقَيِّضْ لَه شَيطاناً فَهو لَه قَرينٌ وإنّهم لَيَصُدُّونَهم عَنِ السبيل ويَحْسَبونَ أنّهم مُهتَدون ﴾[٣٩]، ويقول : ﴿ وَلا تكُونوا كالَّذين نَسُوا الله فَأنْسَيْهُم أَنْفُسَهم ﴾[٤٠]، والنسيان ، هو الإعراض عن الذكر ، عرف انّ نسيان

---

(٣٦) المائدة / ١٠٥ .

(٣٧) الانشقاق / ٦ .

(٣٨) الجن / ١٧ .

(٣٩) الزخرف / ٣٦ .

(٤٠) الحشر / ١٩ .

نفسه ، والتعلّق بالاشياء ، علامة نسيان ربِّه .

وانّه لو أعرض عن ذكره ، وتعلّق بالاشياء ، لسلكه ذلك إلى عذاب صَعَد ، ولا عذاب عند المحبين إلّا حجاب البعد ، ولأضلّه القرين عن السبيل . وحينئذ يتحقّق أنّ السبيل هو نفسه ، وطريقة التعلّق به للسلوك إلى ربّه ، لأنّ ربَّه معه وقائم عليه محيط به . فعند ذلك ينقطع عن كلّ شيء إلى نفسه ، ويتعلّق بها ، ويصفّيها ، ويهذّبها بفاضل الأخلاق وصالح الأعمال ، والتحرّز عن الموبقات ، والفرار عن المهلكات ، لأنّه سبحانه يأمر بها ، ويحبُّها لا لجنة يطمع فيها ، ولا لنار يخاف منها ، بل لوجه الله ، لا يريد بذلك جزاء ولا شكوراً .

كلّ ذلك وهو متعلّق بنفسة ابتغاء لقاء ربه ، محدق بها ، متوجه القلب إليها ليله ونهاره ، لكنّه لا يعطيها استقلالاً ، ولا يدع لها تمكّنا ، وحاشاه !

وأنّى يقع صادق الحب على محبوبَين ؟ وحقّ الطلب على مطلوبَين ؟ بل المحبوب محبوب لذاته ، وكلّ ما يحبّه هو محبوب لأجله ؛ فهو المحبوب في نفسه وفي غيره .

وأنت تعلم أنّ المحبَّ لا يريد إلّا المحبوب يلوي (يفرّ) إليه من كلّ ما يصدّه عنه ، ويميل إليه من كلّ ما

يشغله عنه . لا همَّ له إلّا الخلوة بمحبوبه والوصول إليه من كل حاجب يحجب عنه . وكلّما مكث على وصفه ، اشتدّ وجده واشتعل نار شوقه ؛ وربما دفعه الشوق إلى الغيبة عن نفسه ، وفنائها عن نظره ، والإشتغال فقط بربِّه ، فلا يبقى إلّا وجهُ ربِّه ذو الجلال والإكرام .

وهؤلاء أيضاً طبقة ، ومقامهم في العلم والعمل ما عرفت .

وقد عرفت أنّ الفارق حقيقة بين هذه الطبقات الثلاث ، اختلاف حالهم في الإدراك ؛ وبذلك يفترقون في فهم المدلول من كلام واحد إلى مدلولين اثنين ، أو إلى ثلاث .

فبيان الطريق ليس من شؤون الشرع ، وإنّما هو الفهم يختلف اختلافاً .

ولقد سمعت بعض مشايخي ، وقد سُئل عن طريق معرفة النفس : لِمَ لَم يُبيِّن شرعاً ، وهو أقرب الطرق إلى الله سبحانه ؟

فقال مُدَّ ظلّه : وأيّ بيان في الشرع لا يروم هذا المقصد ، ولا يشرح هذا الطريق ؟

ومن هنا ربما يذكر بعض هذه الطبقة في تفسير بعض الآيات والأخبار ، معاني بعيدة عن الفهم العادي كلّ البعد . هذا !

والذي ينبغي أن يعلم ها هنا انّ هذا الطريق مركب من فعل وترك ، وهو رفض غير الله ، والتوجّه إلى الله سبحانه ؛ وهما كالمتلازمين أو متلازمان . إذ قد مرّ انّ العلم بالله أبده البديهيات ، وإنّما الحاجب عنه هو الغفلة دون الجهل ، وذلك بالإشتغال بحطام الدنيا ، وعرَض هذا الأدنى . فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

فالإشتغال بها يوجب حبَّها ، وتعلّق الهمّة كلّها بها . فيشغل ذلك حيّز القلب ، فلا يصفو مرآته حتى ينعكس فيها جمال الحقّ سبحانه ، ويحصل المعرفة . فان الأمر ، أمر القلب .

وإن شئت اختبار صدق ما ذكرناه ، أمكنك اعتباره بان تأخذ لنفسك مكاناً خالياً ، لا يكون فيه شاغل زائد من النور والصوت والأثاث وغيرها .

ثمَّ تقعد قعوداً لا يشغلك بفعل زائد مع غمض العين .

ثم تتوجَّه إلى صورة مّا خيالية ، بأن تشخص بعين

خيالك إلى صورة « أ » مثلاً ، وتتنبّه لكلّ صورة خيالية تطرقك لتستعمل الإعراض عنه إلى صورة « أ »، فإنك تجد في بادىء الأمر صوراً خيالية معترضة مزدحمة عندك مظلمة مشوشة ، لا يتميّز كثير منها بعضها عن بعض ، من أفكار اليوم والليلة ، ومقاصدك وإرادتك ، حتى ربما تتيقّظ بعد مضي نحو ساعة انّك في مكان كذا ، أو مع شخص كذا ، أو في عمل كذا . هذا مع انك قد شخصت ببصر خيالك نحو «أ» ، وهذا التشويش يدوم معك مدّة .

ثم لو دمت على هذه التخلية أيّاماً ، ترى بعد برهة انّ الطوارق والخواطر تقلّ فتقلّ ، ويتنوّر الخيال ، حتى كأنك ترى ما يخطر في قلبك من هذه الخواطر ببصر الحسن ، ثم تقلّ فتقلّ كلّ يوم تدرُّجاً ، حتى لا يبقى مع صورة « أ » صورة اخرى ألبتة . هذا !

ومن ذلك تعرف صحّة ما قلنا انّ الاشتغال بالمشاغل الدنيوية توجب نسيانك نفسَك ، والغفلة عما وراء هذه النشأة ؛ وانّ التخلّص نحو الباطن ، يحصل بالإعراض عن الظاهر ، والإقبال إلى ما ورائه . فلو رمت نحو مشاهدة نفسك بمثل الطريق المذكور مثلاً ، وجدت أضعاف ما ذكرناه من الخواطر المانعة ، وهي صور

المشتهيات والمقاصد الدنيوية .

فالطريق المتعيّن للمعرفة أن تصفّي قلبك عن الدنيا ، وكلّ حجاب غير الله سبحانه .

فكلّما ذكر من الاسباب من المراقبة والخلوة وغيرهما إنّما هو لتحصيل هذه الحالة القلبية ، ثم تتوجّه بقلبك نحو الحقّ سبحانه ، وتشرف عليه عزّ اسمه .

وهذا هو الذكر ، وهو الاشراف على الحقّ سبحانه ، وهو آخر المفاتيح ؛ والله الهادي .

واعلم أنّ الذكر بهذا المعنى ، كثير الورود في الكتاب والسُّنة .

قال سبحانه : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أَغفَلْنا قَلْبَه عَن ذِكرنا ﴾[41].

وقال سبحانه : ﴿ واذْكُرُوا اللهَ كِذْكْرِكم آبائكم أوْ أشدَّ ذكراً ﴾[42]، فمن المعلوم انّ الشدة لا يوصف به الذكر اللفظي .

(٤١) الكهف /٢٨ .

(٤٢) البقرة / ٢٠٠ .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيب ﴾[٤٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وما يَذَّكَّرُ إلَّا أولوا الألْباب ﴾[٤٤] .

إلى غير ذلك من الآيات ، وقد مرَّ بعض الأخبار المشتملة عليه .

وفي دعاء كميل ، قال عليه السلام : «أسألك بحقِّك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك ، أن تجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة ، وبخدمتك موصولة ، وأعمالي عندك مقبولة ؛ حتَّى تكون أعمالي وأورادي كلُّها ورداً واحداً ، وحالي في خدمتك سرمداً ـ الدعاء » .

---

(٤٣) غافر / ١٣ .

(٤٤) البقرة / ٢٦٩ .



الفصل الخامس

فيما يناله الإنسان بكماله



وهـذا الفصل كـالتوضيـح لما مـرّ في الفصل الثـاني من الكلام .

نقـول : قد عـرفت انّ كمال الانسـان فنائـه بأقسـامـه الثلاثة ، وبعبارة اخرى التوحيد الفعـلي والإسمي والذاتي . وقـد عرفت أيضـاً انّ كل مـوجود فقـربه من الحقّ سبحـانـه عـلى قدر حـدود ذاته وأعـدامه ؛ فـالوسـائط التي بين نشـأة الانسـان البدنيـة ، وبـين الحقّ سبحـانـه ، متـرتبّـة بحسب حدود ذواتها .

فالإنسان في سيره إلى الحقّ سبحانـه لا بدَّ أن يعبـر من جميـع مـراتب الأفعـال والأسـماء والـذوات ، حتى ينـال التوحيدات الثلاثة .

وحيث انّـه لا ينال مـرتبة من مـراتب كمالـه إلاّ بفنائـه وبقاء ذلك الكمال في المحل ، فهو في كلّ مرتبة واقف على

مجرى جميع أنـواعِ الفيوضـات المترشّحـة من تلك المرتبـة إلى مـا دونها ، متحقّق بـه ، حتى ينـال تـوحيـد الـذات ، ولا يبقى له إسم ولا رسم ، والمُلكُ يَومئذ لله .

وهذا البرهان على وجازته ، مشتمل على جميع مقامـات الأولياء ، منبىء عن شؤونهم ، كاف لمن فهمه .

وأمّا خصوصيـات مقامـاتهم فلا يحيط بهـا إلاَّ ربُّهم ـ عزَّ اسمه ـ .

تتمـة :

مقامات الأوليـاء وخاصـة أسرارهم مـع الله سبحانـه ، حيث انّ ولايـة أمرهـم لله سبحـانـه ، وقـد فنت أسمـاؤهم ورسومهم فيه تعالى ، لا يمكن الإحاطة بها .

وقد قال سبحانه : ﴿ ولا يُحِيطون به عِلماً ﴾[1].

وكفى لهم شـرفاً انّ ولايـة أمرهـم لله سبحـانـه ، وهـو المـربّي لهم ، والمبّشر لهم ، قال سبحـانـه : ﴿ ألا إنّ أوليـاء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنون ﴾[2].

(١) طه / ١١٠ .

(٢) يونس / ٦٢ .

ثم عرَّفهم سبحانه ، فقال : ﴿ **الذين آمنوا وكانُوا يَتَّقون** ﴾[3]، فوصفهم بتلبّسهم بالإيمان ، بعد تلبّسهم بالتقوى .

ومن المعلوم انّ التقوى التي هي التحذّر عما يسخط الله ، إنّما تتحقّق بعد الإيمان بالله ورسوله .

فعلمنا بذلك انّ هذا الإيمان المذكور في الآية ، غير الإيمان الذي يتقدّم على التقوى ، وليس إلّا تأكّد الايمان ، بحيث لا يتخلّف عنه مقتضاه .

فإنّ أصل الإيمان ، وهو الإذعان في الجملة ، يجامع الشرك في الجملة وسائر المعاصي . قال سبحانه : ﴿ **وَمَا يُؤْمِن أكثرُهم بالله إلّا وهُم مُشرِكون** ﴾[4]. لكنّ الكامل التامَّ منه يلازم الجري على ما يوجبه اصول الدين وفروعه . فيرجع معناه إلى التسليم للرسول في كل ما جاء به ، كما قال سبحانه : ﴿ **فَلا وَربِّك لا يُؤْمنون حتّى يُحَكِّموك فيما شَجَرَ بينهم ثُم لا يَجِدوا في أنْفُسهم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تسليماً** ﴾[5].

---

(٣) يونس / ٦٣ .

(٤) يوسف / ١٠٦ .

(٥) النساء / ٦٥ .

وتسليمك لأحد أن تفنى إرادتك في إرادته ؛ فلا تريد إلا ما يريد ، ولا تشاء إلّا ما تشاء ، وهو التبعيّة التامّة .

كما قال سبحانه : ﴿ قُل إنْ كُنتُم تُحِبُّون الله فَاتَّبعوني يُحْبِبْكُم الله ﴾[٦] ؛ وقال : ﴿ يَا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا الله وآمِنوا بِرَسوله يُؤْتِكُم كِفلَيْنِ مِن رَحمته ﴾[٧] .

فقيّد الإيمان ثانياً بالرسول ؛ وهذا الإيمان ، هو اليقين التامّ بالله سبحانه وأسمائه وصفاته ، وبحقيّة ما جاء به رسوله ، والتبعية والتسليم التامّ للرسول . فأفعالهم طبق أفعاله ، وغايتهم غايته ، وهو امامهم ؛ ولا غاية له صلّى الله عليه وآله إلّا ابتغاء وجه ربّه ، والإعراض التامّ عن الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَك مَعَ الذين يَدْعُون رَبَّهم بالغَدَاةِ وَالعَشيِّ يُريدُون وَجْهَه ولا تَعْدُ عَيناك عنهم تُريدُ زينةَ الحيٰوة الدنيا ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنا قلبَه عَن ذِكرِنا واتَّبَعَ هواهُ وكان أمْرُه فُرطاً ﴾[٨] .

ثم وعدهم سبحانه ، فقال : ﴿ وبَشِّرِ الذين آمَنوا أنَّ

---

(٦) آل عمران / ٣١ .

(٧) الحديد / ٢٨ .

(٨) الكهف / ٢٧ .

لَهُم قَدَمَ صِدقٍ عِنْدَ رَبِّهِم ﴾[9]

وقدم الصدق ، هو المكانة الثابتة والمقام المكين ، فبه يكنى عن ذلك عرفاً ، وهو مرتبتهم من الله سبحانه عنده .

وقد قال سبحانه : ﴿ ما عندكم يَنْفَدُ وما عند الله باق ﴾[10]، فأخبر بأن ما عنده باق دائم غير فان ولا هالك .

وقال أيضاً : ﴿ كلُّ شيء هالكٌ إلاّ وَجْهَه ﴾[11]، فأخبر بالهلاك لكلِّ شيء غير وجهه .

فبان بذلك انّ ما عنده سبحانه وجه له ؛ ووجه الشيء غير منفصل عن الشيء ، وهو ما يواجهك به . فهؤلاء متمكنون بقدمهم الصدق في سبحات وجهه تعالى ، مستهلكون في غمار أنواره ، خارجون عن حيطة العمال ، غير مختصِّين بمكان دون مكان ، ﴿ فأيْنَما تُولُّوا فَثَمّ وَجْهُ الله ﴾[12]. وقال سبحانه أيضاً : ﴿ كلُّ مَن عَلَيها فانٍ

---

(9) يونس /٢ .
(10) النحل /٩٦ .
(11) القصص /٨٨ .
(12) البقرة / ١١٥ .

﴿ ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذو الجَلالِ والإكرامِ ﴾[13] .

وقد أطبق القرّاء على قراءة « ذو » بالرفع ، وليست صفة مقطوعة يشهد به قوله تعالى : ﴿ تَبارَكَ اسْمُ رَبِّك ﴾[14] ، ﴿ وسَبِّح اسْمَ ربِّك ﴾[15] ، فهو صفة وجه .

والجلال والإكرام جامعان لصفات الجلال والجمال جميعاً ، فلا يشذّ عنهما صفة من صفاته العليا ، ولا اسم من أسمائه الحسنى .

فهؤلاء متمكنون بينها وفيها ، لا إسم لهم ولا رسم إلّا صفاته وأسمائه سبحانه ، وارتفع الحجاب ، إذ لم يبقَ منهم ولا معهم ولا دونهم شيء ولا غير وجهه ذي الجلال والإكرام شيء . فافهم !

وبذلك يظهر معنى ما في حديث مجيء الملائكة بالكتاب من الله إلى وليّه بالجنة ، وفيه مكتوب : « من المَلك الحيِّ القيُّوم ، إلى المَلك الحيِّ القيُّوم . الحديث » .

وقد وعدهم سبحانه بالقرب منه تعالى ، وسمّاهم

(١٣) الرحمن / ٢٧ .
(١٤) الرحمن /٧٨ .
(١٥) الاعلى /١ .

المقرّبين ، إذ عرَف المقربين بالسابقين في قوله سبحانه : ﴿ وَالسَّابقون السابقون أُولٰئك المقرَّبون ﴾[١٦] . وعرَّف السابقين بتقييدهم بالخيرات فقال سبحانه : ﴿ ثُمّ أورثْنا الكتابَ الذين اصْطَفَينا مِن عِبادنا فَمِنهم ظالمٌ لِنَفْسه ومِنْهُم مُقْتَصِد وَمِنهم سابقٌ بالخيرات ﴾[١٧] .

وقال سبحانه أيضاً : ﴿ إنّ الذين هُم مِن خَشْية ربِّهم مُشفِقون والذين هُم بآيات ربِّهم يُؤْمنون والذين هم بربِّهم لا يُشْرِكون ﴾[١٨] .

فقد نفى كل شرك علماً وعملاً ، إلى أن قال : ﴿ أُولٰئك يُسارعون في الخَيرات وهُم لَها سابقون ﴾[١٩] . فهؤلاء هم المؤمنون حقاً المستكملون للعلم بالله ، والعمل لله ، السابقون المقرّبون الموقنون .

ثمّ وعدهم سبحانه بأنّه يكشف الغطاء عن قلوبهم ، فقال : ﴿ كلاَّ إنَّ كتاب الأبرار لَفِي عِلّيّينَ ومَا أدرَيك ما علِّيّونَ كتابٌ مرقومٌ يَشْهَدُهُ المقرَّبون ﴾[٢٠] وعليّون ، هو

---

(١٦) الواقعة / ١٠ .

(١٧) فاطر /٣٢ .

(١٨) المؤمنون /٥٧ ـ ٥٩ .

(١٩) المؤمنون / ٦١ .

(٢٠) المطففين / ١٨ ـ ٢١ .

العالم العلوي .

وقال سبحانه : ﴿ وَكذلك نُري إبراهيمَ مَلَكوتَ السَّمواتِ والأرضِ وليَكون مِن المُوقنين ﴾[21] .

وهذه الغاية من قبيل قوله تعالى : ﴿ وَكذلك مَكَّنّا ليُوسُفَ في الأرضِ ولِنُعَلِّمَهُ مِن تأويل الأحاديث ﴾[22]، وقوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله الَّذين آمنوا وَيتَّخِذَ مِنكم شُهَداء ﴾[23]، لا من قبيل قوله : ﴿ لِئَلّا يَكونَ لِلنّاسِ عَلَى الله حُجّةٌ بَعدَ الرسُل ﴾[24] .

فإذن تفيد الآية أنّه سبحانه يُرى عبادَه الموقنين ملكوتَ السموات والأرض .

وقد أفاد في قوله سبحانه : ﴿ إنّما أمْرُهُ إذَا أرادَ شيئاً أنْ يَقولَ له كُنْ فَيكونُ فَسُبحانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكوتُ كلِّ شيء وإليه تُرْجَعون ﴾[25]، أن الملكوت هي عالم الأمر ، وهو العالم العلوي .

---

(٢١) الانعام / ٧٥ .

(٢٢) يوسف / ٢١ .

(٢٣) آل عمران / ١٤٠ .

(٢٤) النساء / ١٦٥ .

(٢٥) يس / ٨٢ ـ ٨٣ .

وفي الحديث : « لولا أنّ الشياطين يَحُومون حول قلوب بني آدم لرأوا ملكوت السموات والأرض » .

ومن الشاهد على أنّ اليقين يعقّبه الله سبحانه بذلك ، قوله تعالى : ﴿ كلّا لو تَعْلَمون عِلْمَ اليقين لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَينَ اليقين ﴾[٢٦]؛ وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلى قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[٢٧] .

---

(٢٦) التكاثر / ٥ ـ ٧.

(٢٧) المطففين / ١٤ .

ويستفاد من الآية الشريفة انّ مشاهدة آيات الله ، المستورة عن أعين غير أهل اليقين ، المضروب عليها بالغطاء والحجاب ، إنّما هي بعين القلب ، دون عين الحس البدني . فللقلب عين ، كما أنّ له سائر الأعضاء الحساسة .

وفي هذا المعنى آيات كثيرة في كتاب الله ، كقوله عز وجلّ : ﴿ وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْديهم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِم سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهم فَهُم لا يُبْصِرون ﴾.

وقوله : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُم لا يَعْقِلون ﴾ .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الأرض فَتَكُونَ لهم قلوبٌ يَعْقِلون بها أو آذانٌ يَسْمَعون بها فَإِنَّها لا تَعْمَى الأبصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القلوبُ الَّتِي في الصُّدور ﴾، وهذه الآية تفسّر المراد بالعين والأذن وغيرهما ، انّ المراد بهنّ جميعاً في باب الهداية والضلالة ، =

ويشير سبحانه أيضاً بذلك انّ اكتساب المعاصي يزيل حكمَ اليقين ، كما قال : ﴿ وَجَحدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أنفسُهم ﴾[28]، وقال : ﴿ أفرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلٰهه هَوَيٰهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلمٍ وَخَتَمَ عَلَى سمعه وقلبه ﴾[29] .

بل لا بدَّ مع اليقين ، من صالح العمل ، حتى ينتج النتيجة ، ويسمح بالثمرة . قال : ﴿ إلَيه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمل الصالحُ يرْفَعُه ﴾[30] هذا !

= إنّما هي جوارح القلب والباطن ، دون الجسم المحسوس الظاهر .

ومن هذا الباب ، سائر المعاني المصرّح بها في حقّ المهتدين والضالين ، كقوله : ﴿ الله وليُّ الَّذينَ آمنوا يُخْرِجُهم مِن الظُلماتِ إلى النور والذين كَفَروا أولياؤهم الطاغوتُ يُخْرِجُونَهم مِن النور إلى الظُلماتِ ﴾ .

وقوله : ﴿ إنّا جَعَلْنا في أعْناقِهِم أغْلالاً ﴾، إلى غير ذلك من الآيات .

فللقب عالم ، كما أنّ للحسّ عالماً ؛ وله من الأحكام والآثار ما يشبه عالم الحسّ .

(٢٨) النمل / ١٤ .
(٢٩) الجاثية / ٢٣ .
(٣٠) فاطر / ١٠ .

ولنعد إلى ما كنّا فيه ، ونقول : ووعدهم سبحانه أنّه يبدّل حياتهم أي وجودهم ، فقال : ﴿ أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناه وَجَعَلْنا له نوراً يَمْشي به في الناس ، كَمَنْ مَثَلُه في الظُلمات لَيْسَ بخارج منها ﴾[31] .

فبيّن أنّ لهم حياة معها نور ، يمشون به في الناس ، أي يعاشرونهم . والمعاشرة إنّما هي بالقوى والحواسّ ، فلهم حياة نورانية وحواس وقوى ربّانية .

وقال أيضاً : ﴿ وَكذلك أوْحَيْنا إليك رُوحاً مِن أمْرنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكتابُ وَلا الإيمانُ وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نوراً نَهْدِي به مَن نَشاء مِن عبادنا ﴾[32] .

فبيّن أنّ هذا النور روح عاقل فاهم من عالم الأمر ، كما قال : ﴿ أُولئك كَتَبَ في قلوبهم الإيمانَ وَأَيَّدَهم بروحٍ مِنه ﴾[33] .

ثم أخبر سبحانه أنّه يهديهم لنوره جلَّ وعزَّ وهو النور على كلّ نور ، به يضيء السموات والأرض فقال

(31) الانعام / 122 .
(32) الشورى / 52 .
(33) المجادلة / 22 .

سبحانه : ﴿ أللهُ نورُ السموات والأرض ﴾[٣٤] .

ثم مثَّل بهذا النـور الذي بـه يضيء السموات والأرض بقـوله : ﴿ مَثَـل نـوره كمِشْكَـوة فيهـا مِصْبَـاح المصبـاحُ في زُجَاجَةَ الزجاجةُ كأنّها كوكبٌ درِّيّ يُـوقَدُ مِن شَجَـرة مُباركـة زَيتونة لا شرقية ولا غربية يَكـادُ زَيْتُها يُضيءُ ولـو لم تَمْسَسْهُ نارٌ نور على نور يَهْدِي الله لنوره مَن يشاء ﴾[٣٥] .

فلنـوره حجابـان من نور ، يستضيئـانْ به ، ويستضيء بهـما السموات والأرض ؛ أحـدهمـا المشكـوة ، وهي الأقـل ضيـاء ، يستضيء بما فيـه وهي الزجـاجـة ، وهي تستضيء بالمصباح .

فالمصباح هو القيِّم بنور الزجاجة والمشكوٰة .

والـزجاجـة قيِّم بنـور المشكـاة ، وهي آخـر مـا يضيء ويستضاء به منها .

ولعلَّ نور الأرض بهـا ، وفوقهـا الزجـاجة ، ولعـلَّ نور السـماء بها كـما قال سبحـانه : ﴿ يُـدَبِّرُ الأمْـرَ مِن السماء إلى الأرض ﴾[٣٦] الآية .

---

(٣٤) النور / ٣٥ .

(٣٥) النور / ٣٥ .

(٣٦) السجدة / ٥ .

ولم يقع في الآية الشريفة لما وراء السموات والأرض ذكر ، ولا للمصباح المذكور فيها بيان ، غير ما يلوح من قوله : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجرة مُباركة زَيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكادُ زَيْتُها يُضيء ولو لم تَمْسَسْه نار . . . . ﴾ . فافهم !

ثم ذكر سبحانه انّ ما مثّل به من المشكاة مع ما فيه ﴿في بيوت أذن الله أنْ ترفع ويذكر فيها اسمه يُسَبِّح له فيها بالغُدُوِّ والآصال * رجالٌ لا تُلْهِيهم تجارة ولا بَيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾(٣٧) .

فعرَّفهم سبحانه بأنّهم لا يغفلون عن الذكر والعمل الصالح ، فهؤلاء غير محجوبين عن ذكره تعالى ، ولا يلتفتون إلى غيره إلّا به سبحانه ، فهم المخلصون له سبحانه . وقد مرّ شمّة من حال المخلَصين في الفصل السابق عند ذكر الآيات الواردة في حالهم ، قال تعالى : ﴿ سُبحانَ الله عمّا يَصِفُون إلّا عبادَ الله المُخْلَصين ﴾(٣٨) .

وقال تعالى : ﴿ كَذلك لِنَصْرف عَنْهُ السُّوء والفَحشاء

---

(٣٧) النور / ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣٨) الصافات / ١٦٠ .

إنّه من عبادِنا المُخْلَصين ﴾[٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ فَبِعِزَّتك لاغْوِيَنَّهُم أجمعين إلاّ عبادَك مِنهم المُخلَصين ﴾[٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ إنَّهم لَمُحْضَرون إلاّ عِبَادَ اللهَ المُخلَصين ﴾[٤١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إلاّ ما كنتم تَعْمَلون إلاّ عبادَ الله المُخلَصين ﴾[٤٢] .

فبيّن أنّه منزَّه عن كلّ ثناء إلاّ ثناؤهم ؛ وأنّه يصرف السوء والفحشاء عنهم ، وأنّ وسوسة إبليس تمسُّ كُلاً إلاَّ إيَّاهم ، وأنّ أهوال الساعة من الصعقة ، وفزع الصور ، وإحضار الجمع ، وإعطاء الكتاب ، والحساب ، والوزن ، غير شاملة لهم ، وهم مستثنون منها ؛ وأنّ جزائهم ليس في مقابل الأعمال ، إذ لا عمل لهم .

فهذه نبذة من مواهب الله سبحانه في حق أوليائه .

---

(٣٩) يوسف / ٢٤ .

(٤٠) الحجر / ٤٠ .

(٤١) الصافات /١٢٨ .

(٤٢) الصافات / ٤٠ .

وقد تحصَّل من الجميع أنّ من مواهب الله في حقّهم إفنائهم في أفعالهم وأوصافهم وذواتهم .

فأوّل ما يفنى منهم الأفعال ، وأقلُّ ذلك علىَ ما ذكره بعض العلماء ستة : الموت ، والحياة ، والمرض ، والصحّة ، والفقر ، والغنى . فيشاهدون ذلك من الحقّ سبحانه كمن يرى حركة ، ولا يشاهد محرّكها ، وهو يعلم به . فيقوم الحقّ سبحانه في مقام أفعالهم ، فكأنَّ فعلهم فعله سبحانه ، كما يشير إليه ما في الكافي ، والتوحيد ، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنهم ﴾ الآية : إنّ الله تبارك وتعالى لا يَأسِف كأَسَفنا ، ولكنّه خَلَق أولياء لنفسه ، يَأسِفون ويَرضون ، وهم مخلوقون مربوبون . فجعل رضاهم رضا نفسه ، وسخطهم سخط نفسه . وذلك لأنّه جعلهم الدُعاة إليه ، والأدلّاء عليه ، فلذلك صاروا كذلك ، وليس ان ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك .

وقال أيضاً : مَن أهانَ لي وليّاً ، فقد بارَزَني بالمحاربة ، ودعاني إليها .

وقال أيضاً : ﴿ مَن يُطِعِ الرسولَ فَقَدْ أَطاعَ

الله ﴾[٤٣].

وقال أيضاً : ﴿ إنّ الذين يُبايعونك إنَّما يُبايِعون الله ﴾[٤٤].

وكلّ هذا وشبهه على ما ذكرت لك . وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء ممّا يشاكل ذلك » الحديث .

يشير عليه السلام بقوله : « ممّا يشاكل . . . »، إلى الآيات الكثيرة ، والأخبار الواردة في المقام ، كقوله تعالى : ﴿ وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنّ الله رَمَى ﴾[٤٥].

وقوله تعالى : ﴿ وَما يَنْطِقُ عَنِ الهَوى إنْ هو إلاّ وَحيٌ يُوحَى ﴾[٤٦] والضمير إلى النطق .

وقوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ لك مِن الأمْر شيء ﴾[٤٧].

وكقوله صلّى الله عليه وآله : « فاطمة بِضْعة مِنّي ؛ مَن آذاها ، فقد آذاني ؛ ومَن آذاني ، فقد آذَى الله . الحديث ». وسيأتي رواية الدَّيلمي ، ان شاء الله .

---

(٤٣) النساء / ٨٠ .
(٤٤) الفتح / ١٠ .
(٤٥) الانفال /١٧ .
(٤٦) النجم /٣ ـ ٤ .
(٤٧) آل عمران / ٢٨ .

ثم يفنى منهم الأوصاف واصولها على ما يظهر من أخبار أهل البيت عليهم السلام خمسة : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ؛ وقام الحقّ سبحانه في ذلك مقامهم .

ففي الكافي ، عن أبي جعفر ، في حديث : « إنّ الله جلّ جلاله قال : ما تَقَرَّب إليَّ عبد من عبادي بشيء أَحبّ إليَّ ممّا افترضتُ عليه ؛ وإنّه ليتقرَّب إليَّ بالنافلة حتى أُحبّه ، فإذا أحببتُه ، كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ولسانه الذي يَنطق به، ويده التي يَبطش بها ؛ إن دعاني أَجَبتُه ، وإن سألني أعطيته . الحديث » .

وهو من الأحاديث الدائرة بين الفريقين ، وتصديق ذلك من كتاب الله العزيز ، قوله : ﴿ **قُل إنْ كنتم تُحِبُّون الله فَاتَّبِعوني يُحْبِبْكم الله ويَغْفِر لكم ذنوبَكم** ﴾[٤٨] .

وقوله : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا الله وآمِنوا برسوله يُؤْتِكُم كِفْلَين مِن رَحمته وَيَجْعَلْ لَكم نوراً تَمْشون به ويَغْفِر لكم** ﴾ الآيتان[٤٩]، وتطبيق الآيتين بسياقيهما ، وهما يأمران

---

(٤٨) آل عمران / ٣١ .

(٤٩) الحديد / ٢٨ .

وهذا النور روح حيّ ، يحيى بها الإنسان كما مرَّت الإشارة إليه =

باتبّاع الرسول صلّى الله عليه وآله ، والإيمان به ، وهما واحد ، يفيدان محبّة الله سبحانه لعبده ، هي رحمة على رحمة ؛ ويورث له نوراً يمشي به في الناس ، أي يعاشرهم ويعيش فيهم ، وقد كان يعاشر ويعيش بقوى نفسه وأسبابها من سمع وبصر ويد ولسان ، فتبدّل إلى نور من ربه ، هذا !

وفي اثبات الوصية للمسعودي ، عن أمير المؤمنين ، في خطبة : « سبحانك ، أيّ عين تقوم نصب بَهاء نورك ، وترقى إلى نور ضياء قدرتك ؟ وأيّ فهم يفهم ما دون ذلك إلّا أبصارٌ كشفت عنها الأغطية ، وهتكت عنها الحجب العميّة ؛ فرقت أرواحها إلى أطراف أجنحة الأرواح ، فناجوك في أركانك ،وولجوا بين أنوار بهائك ، ونظروا من مرتقى التربة إلى مستوى كبريائك ، فسمّاهم أهل الملكوت زوّاراً ، ودعاهم أهل الجبروت عماراً ؛ الخطبة » .

= في قوله تعالى : ﴿ أوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأحْيَيْنَاه وجَعَلْنا له نوراً يَمشي به في الناس ﴾ الآية .

إذ ظاهر السياق انّ قوله ﴿ وَجَعَلْنَا له . . . ﴾ الخ ، بيان لأحييناه .

وقد مرَّ حديث هشام في الفصل الثالث .

وهـذه المعاني كثيـرة الورود في الأدعيـة ، ففي منـاجـاة علـيّ عليـه السـلام في أيّام شعبـان : « إلٰهي وألْهِمْني وَلَهـاً بـذكرك إلى ذكـرك ، واجْعَلْ هَمّي إلى رَوح نَجـاح أسمائـك ومحـلّ قـدسـك ، إلى أن قـال : « إلٰهي هَب لي كـمـالَ الإنقطاع إليك ، وَأَنِـرْ أبصارَ قلوبنـا بضياء نـظرها إليـك ، حتّى تَخـرق أبصارُ القلوب حُجُبَ النـور ، فتَصلَ إلى معـدن العـظمـة ، وتصير أرواحنـا معلّقـة بعـزِّ قـدسـك . إلٰهي وَاجْعَلْني مِمَّن ناديته فأجابـك ، ولاحظتـه فصَعِق لجلالـك ، فنـاجيتـه سـرّاً ، وعمـل لـك جهـراً ، إلى أن قـال : إلٰهي وألْحِقْني بنور عزِّك الأبهج ، فأكونَ لك عـارفاً ، وعن سـواك مُنحـرِفاً ؛ المنـاجاة » . وهي جـامعة للمقـدّمة وذي المقـدّمـة جميعاً ، أعني السلوك والشهود .

وفي عـدّة الـداعي لابن فهـد ، عن وهب بن منبِّـه : فيـما أوحى الله إلى داود : « يـا داود ! ذكـرى للذاكـرين ، وجنّتي للمـطيعـين ، وحبّي للمشتـاقـين ، وأنـا خـاصّـة للمحبين » .

ثم يفنى منهم الـذات ، وينمحـي الإسم والـرسـم ، ويقـوم الحقّ سبحانـه مقـامهم ؛ وقـد ذكـر في آخـر رسـالـة

التوحيد أنّ هذا المقام أجلّ من أن يقع عليه لفظ ، وأن تمسّه إشارة ، وانّ إطلاق المقام عليه مجاز ، وانّه ممّا فتحه الله لنبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله ، ولحقه الطاهرون من آله .

وأقول : الآن انّه يلحقهم أولياء من أمّته للروايات الكثيرة الدالّة على أنّ الله سبحانه يلحق بهم شيعتهم في الدرجات في الآخرة .

وفي رواية الدّيلمي الآتية : : « وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن ؛ الحديث » .

ومنه يظهر أنّ ما وعده الله سبحانه للأمم من المقامات والكرامات في الآخرة ، مرزوق للأولياء في الدنيا ، وفيها اللحوق بإمامهم .

وهذا المقام الذي عرفت انّه أجلّ من المقام ، قد عبّر عنه الأئمة في الأخبار المستفيضة النافية للصفات ، فللأولياء من الأمّة اللحوق بهم بنحو الوراثة في ذلك . فافهم !

ومن المواهب ، سيرهم في خلال العوالم المتوسطة بينهم في الدنيا وبين ربهم عزَّ اسمه كما مرّ .

ففي البحار ، عن إرشاد الدَّيلمي ، وذكر سندين لهذا الحديث ، وفيه : « قال الله تعالى : يا أحمد ! هل تدري أيُّ عيش أهنى ، وأي حياة أبقى ؟ قال : اللّهم لا . قال : أمَّا العيش الهنيء فهُو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ، ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقّي ؛ يطلب رضائي في ليله ونهاره .

أمَّا الحياة الباقية ، فهي التي يعمل لنفسه ، حتّى تهون عليه الدنيا ، وتصغر في عينه ، وتعظُم الآخرة عنده ، ويؤثر هواي على هواه ، ويبتغي مرضاتي ، ويعظّم حقَّ نعمتي ، ويذكر عملي به ، ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيئة أو معصية ، وينقّي قلبه عن كلّ ما أكره ، ويبغض الشيطان وساوسه ، ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً وسبيلاً .

فإذا فعل ذلك أسكنتُ قلبه حبّاً ، حتَّى أجعل قلبه لي ، وفراغه واشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت بها على أهل محبّتي من خلقي ، وأفتح عين قلبه وسمعه ، حتّى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي ، وأُضِيق عليه الدنيا ، وأُبغِّض إليه ما فيها من اللذّات ، واحذّره من الدنيا وما فيها ، كما يحذّر الراعي على غنمه مراتعَ

الهلكة . فإذا كان هكذا ، يفرُّ من الناس فراراً ، وينقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن دار الشيطان إلى دار الرحمن .

يا أحمد ! ولأزَيِّننَّه بالهيبة والعظمة . فهذا هو العيش الهنيء ، والحياة الباقية ، وهذا مقام الراضين .

فمن عمل برضائي ، أُلزمه ثلاث خصال : أُعرّفه شكراً لا يخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين ، فإذا أحبَّني أحببتُه ، وأفتح عين قلبه إلى جلالي ، ولا أُخفي عليه خاصّة خلقي ، وأُناجيه في ظلم الليل ونور النهار ، حتّى ينقطع حديثه مع المخلوقين ، ومجالسته معهم ، وأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي ، واعرّفه السرّ الذي سترته عن خلقي ، وأُلبسه الحياء ، حتى يستحيي منه الخلق كلُّهم ، ويمشي على الأرض مغفوراً له ، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً ، ولا أُخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار ، واعرّفه ما يمرُّ على الناس في القيامة من الهول والشدة ، وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء ، والجهال والعلماء ، وأُنوِّمه في قبره ، وأُنزل عليه منكراً ونكيراً حتّى يسألاه ، ولا يرى غمَّ الموت وظلمة القبر واللحد وهول المطّلع .

ثم أنصب له ميزانه ، وأنشر ديوانه ، ثم أضع كتابه في يمينه ، فيقرئه منشوراً ، ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً . فهذه صفات المحبّين .

يا أحمد ! اجعلْ همَّك همّاً واحداً ، واجعلْ لسانك لساناً واحداً ، واجعلْ بدنك حيّاً لا يغفل أبداً ؛ من يغفل عنّي ولا أُبالي في أيِّ واد هلك . الحديث » .

وفي البحار ، عن الكافي ، والمعاني ، ونوادر الراوندي ، بأسانيد مختلفة ، عن الصادق ، والكاظم عليهما السلام ، عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله ، واللفظ المنقول ها هنا كما عن الكافي ، قال : « استقبل رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله حارثةَ بن مالك بن النعمان الأنصاري ، فقال له : كيف أنت يا حارثة بن مالك النعماني ؟

فقال : يا رسول الله ! مؤمن حقّاً . فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وآله : لكلّ شيء حقيقة ، فما حقيقة قولك ؟ فقال : يا رسول الله ! عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت هواجري ، وكأنّي أنظر إلى عرش ربّي ، وقد وضع للحساب ، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنة ، وكأنّي أسمع عُواء أهل النار في

النار .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : عبد نوَّر الله قلبه ، أبصرت فأثبت؛ الحديث »

ولو تدبّرت جيّد التدبّر في هذه الآيات والأخبار التي نقلناها ، وما تركناها اختصاراً أكثر منها ، وأخذت بالإشارات من العبارات ، شاهدتَ من أنبائهم عجايب يضيق عنها التعبير ، ويقصر دونها باع التوصيف .

والله الهادي ، وهو المستعان .

ولنقطع الكلام في هذا المقام والحمد لله على الإتمام ، وعلى سيدنا محمد وآله الصلاة والسلام .

